أعلام مبرزون
من الشرق والغرب

ابن بطوطة

دار الشرق العربي

ابن بطوطة

703 ـ 770 هـ

1304 ـ 1369 م

1

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب

---

1 ـ الإسْكندَر الأكبـــــر 2 ـ هنيبَعـــــــــل
3 ـ أبو العـــلاء المعــرّي 4 ـ ابـــنُ بطُّوطـــــة
5 ـ ابـــنُ خلـــدون 6 ـ كريسْتوف كولومبوس
7 ـ وليَــم شكسْـــبير 8 ـ نــابوليون بُونــابرت
9 ـ ليــون تُولسْــتوي 10 ـ المهاتما غانْـــدي

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

أعــلام مــبــرزون
من الشرق والغـرب

ابن بطوطة

703 ــ 770 هـ

1304 ــ 1369 م

دار الشرق العربي

حلــب ســوريــة ص.ب:415

بيروت لبنان ص.ب: 11/6918

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي
حلب ـــ سورية ـــ ص.ب: 415

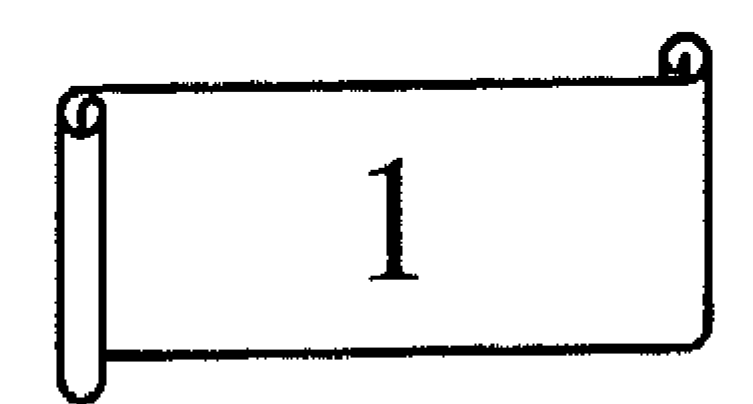
الطبعة الأولى 1998 م - 1419 هـ
الطبعة الثانية 2000 م - 1421 هـ
الطبعة الثالثة 2002 م - 1423 هـ

طبـع فـي : المطبعة الحديثة ـ حلب

تمهيد

قبل البداية

نشأة ابن بطوطة وتكوينه وشخصيته



في أواخِرِ القرنِ السابعِ الـهجريِّ كـانتْ دولةُ المُوحدينَ في المغربِ العربيِّ قد انْـهارَتْ، وقامتْ على أنْقاضِها عِدَّةُ دُوَيْلاتٍ، أقواها **دولْـةُ بني مَرينٍ في المغربِ الأقْصى**، وكانتْ مدينـةُ فاس عاصِمَتهم، وفي ظِلِّ هذهِ الدولَةِ، في مدينَـةِ **طَنْجةَ**، الثّغرِ المغْربيِّ الشماليِّ على مضيقِ جبَلِ طارِقٍ، وُلِدَ الرّحالةُ العظيمُ **ابن بَطّوطةَ**، **محمـدُ**

بنُ عبدِ اللهِ اللَّواتيُّ، نِسْبةً إلى قَبيلة لواتةَ من البَرْبرِ، في السابِعِ عشرَ من رجبٍ عام 703هـ، ونشأ في كنَفِ أسْرةٍ عريقةٍ في الاشتغالِ بالعُلومِ الشرعيةِ الإسلاميةِ وتولَّى مناصِبَ القضاء بينَ الناس، وترَعْرَعَ محمدٌ في جوٍّ من التَّقْوى والصَّلاحِ، فدرسَ القُرآن الكريمَ والعلومَ الدينيةَ وتفقَّهَ فيها، كما تعلَّمَ الأدب وفُنون الشِّعْرِ، والمصادرُ عنْ فترةِ تحصيلِهِ العِلْميِّ لا تُزوِّدُنا بما يَجعلُنا نتتبَّعُ مراحلَ دراستِهِ وأخْذِهِ عن شُيوخِهِ ومُعلِّميهِ، ولكنّنا من خِلالِ أحاديثِه عن رِحلاتِهِ التي طافَ بِها في أرْجاءِ الدُّنْيا في عصرِهِ، وبلغَ فيها مشرِقَ الأرضِ ومغْربَها،

نستطيعُ أن نستشِفَّ صُورة عن ثقافَةِ ابنِ بطُّوطةَ وتكوينِهِ العلميِّ والأدبيِّ، وشَخصيتِهِ التي كوَّنتْها تربيتُه خِلال نشأتِهِ، مُنذُ نُعومةِ أظْفارِهِ حتى بلغَ الثانيةَ والعشرينَ من عُمرهِ عامَ 725 هـ وقدْ استوى شابّاً في ريعانِ الصّبا، قادِراً على تحمُّلِ المشاقِّ، مُوطِّناً نفسَه على الارْتِحالِ في طلبِ العلمِ والعِرْفانِ مُتشوِّقاً إلى القِيامِ بفريضةِ **الحجِّ إلى مكَّةَ**، بعزيمةٍ يشحذُها الطُّموحُ والشوقُ إلى المعرِفةِ وارتيادِ المجْهولِ!

كانتْ تربيةُ ابنِ بطُّوطةَ في كنَفِ أُسرتِهِ تربيةً فاضلةً جعلتْ منهُ رجُلاً تقياً ورِعاً مُحِباً لِلعلمِ والعُلَماءِ، والصالحينَ والأوْلياء، **ولعلَّ**

لنشْأتِهِ في مدينةِ طنْجةَ، وهي تُطِلُّ على مينائها الكبيرِ، العامرِ بالسُّفُنِ الكثيرةِ المُتقاطِرةِ إليْهِ من شتّى أرْجاءِ العالَمِ، **أثراً في تعلُّق الفتى بالطّوافِ في الأرضِ**، إذْ كانتْ طنجةُ تغُصُّ بالمَلاحينَ والرَّبابِنةِ العائدين من رِحْلاتِهِم البعيدة، وفي جُعْبتِهِمْ أقاصيصُ مُشوِّقةٌ عمّا رأوهُ من عجائبِ الدُّنْيا، يُثيرون بِها دهْشةَ السامعينَ، ويهيجُونَ في نُفوسِهم الشوقَ إلى الارْتِحالِ والسَّفَرِ والتنقُّلِ في أرْجاءِ الأرْضِ.

وهكذا يُتاحُ لنا أن نشْهَدَ انطِلاقةَ ابن بَطُّوطةَ في رحلتِهِ **الطويلةِ التي يقْضي فيها ثمانيةَ وعشرين عاماً**، يذْرعُ خِلالها شرْقَ الأرضِ

وغرْبَها، **ويقطـــعُ فيــها مســافةً تُقــدّرُ بمائـــة وعشْرين ألفاً من الكيلومترات**، وقد حاولَ فـــي رحْلتِهِ ألاّ يقْطعَ طريقاً مرّتيْنِ، ليطّلعَ في كلِّ مرةٍ على جديدٍ، ونجحَ في ذلِك إلاّ فيما نَـــدر، وفـــي نهايةِ المطافِ الطويلِ، **أمْلـــى الرحالـــةُ العظيـــمُ ذكرياتِهِ عن الرِّحْلةِ، فكتبها عنْـــهُ محمـــدُ بـــنُ جُزيّ، كاتبُ السُلْطانِ المرينيِّ أبي عنـــانٍ**، فـــي مدينةِ فاس، بعدَ عودتِهِ إليها، في كتـــاب ســـمَّاهُ **(تُحْفةَ النُظّارِ في غرائِـــبِ الأمْصـــارِ وعجـــائبِ الأسْفارِ)** وهو بحقٍ تُحفةٌ ثمينةٌ تتضمَّنُ صـُــــورة نابِضةً بالحياةِ عنِ الأقْطارِ التي زارَها ابنُ بطوطـــةَ ووصفَ ما شاهدَهُ فيها، وذكرَ انطِباعاتِهِ عنْها.

2

ويُمكنُنا أنْ نُميِّزُ في كتابِ رحلةِ ابن بطُّوطةَ **ثلاثَ رِحْلات** أولاها **الرِّحلةُ الكُبرى** التي بدأها من طنْجةَ عامَ 725 هـ وطافَ خِلالها في العالمِ الإسْلاميِّ ووصلَ إلى بلادِ الرُّومِ والهندِ والصين، وعادَ إلى طنْجةَ عامَ 750 هـ بعد رُبْعِ قرْنٍ من التّنقُّلِ الدائبِ والتّجْوالِ في الأرْضِ؛ **والرِّحْلَتانِ الأُخْريانِ** قصيرتان: واحدة تمَّتْ خِلالَ عامِ 751 هـ وزارَ فيها الأنْدلُسِ، وواحِدة دامتْ نحوَ سنتيْن زارَ فيها السُّودان ووصلَ إلى تمبكْتو، وهِيَ آخرُ رحلاتِهِ التي انتهتْ عام 754هـ.

ثمانيةٌ وعشرونَ عاماً من التِّرْحالِ، قطَعَ خِلالها نحواً من مائةٍ وعشرينَ ألفَ كيلو مترٍ، ولا يعرفُ تاريخُ الرِّحْلاتِ رحَّالةً استطاعَ أن يَجْتازَ مثلَ هذهِ المسافَةِ قبلَ العُصورِ الحديثةِ، وبعدَ عوْدتِهِ إلى وطنِهِ استقرَّ في **فاسٍ** عاصمةِ بني مرينٍ، في ظِلٍّ وارِفٍ من عطْفِ **السُّلْطانِ أبي عِنانٍ** عليهِ، وهو الذي أعْجب بأحاديثهِ عنْ أسْفارِهِ، وأمرَ كاتبهُ (**ابْنَ جُزَيٍّ**) بأنْ يكتُب تلكَ الأحاديثَ، فأمْلاها ابنُ بَطُّوطةَ عليهِ، حتى فرَغَ من تسجيلِها عامَ 757 هـ وبقي ابنُ بطُّوطة في حاشيةِ السُّلطانِ المَريني إلى وفاتِهِ عام 770 هـ في فاسٍ، مُحاطاً بالتقديرِ والإجْلالِ، غيرَ أنَّ

عدَداً من حُسَّاده ومُعانِديْهِ، مِمَّنْ نَفَسُوا عليهِ منزلتَه لدى السلْطانِ، كانوا يتَّهِمونهُ بالكِذْبِ والافتِراءِ في روايتهِ لِما شاهَدَ في رِحْلَتِهِ من غَرائِبَ وعَجائِبَ، وقد أشارَ **مُعاصِرُه ابنُ خَلْدونٍ** إلى ذلك فيما كتبَ عنهُ في **مُقدِّمتهِ المشْهورةِ:**

"وردَ بالمغْربِ لِعهْدِ السُّلطان أبي عنان من مُلوكِ بني مرينٍ رجُلٌ مِنْ مشيخَةِ (شُيوخٍ) طنْجةَ يُعْرَفُ بابنِ بَطُّوطة، كان رحلَ منذُ عشرين سنة قبلها إلى المشْرِقِ، وتقلَّبَ في بلادِ العراقِ واليمنِ والهنْدِ، ودخلَ مدينة دِهْلي (دِلهي اليوم) حاضرةَ ملِكِ الهندِ، وهو السُّلطانُ محمدُ شاه، وكان له منْهُ مكان، واستعْملهُ في

خِطَّةِ القضاءِ بمذْهبِ المالكيّةِ في عملِهِ، ثمَّ انقلَبَ إلى المغْربِ واتّصل بالسُّلطان أبي عنان، وكان يُحدِّثُ عن شأنِ رِحلْتِهِ وما رأى من العَجائِبِ بممالِكِ الأرْضِ، وأكثرُ ما كانَ يُحدِّث عنْ دولْةِ صاحبِ الهِنْدِ، ويأتي من أحْوالِهِ بِما يتعجَّبُ منهُ السامِعون.. **فتتناجى الناسُ بِتَكْذيبِهِ!**".

والحقُّ أنَّ ابنَ خلدونٍ لم يكُنْ أوَّلَ منْ شكَّ في صِحَّةِ بعضِ أَحاديثِ ابنِ بطُّوطةَ في رِحلْتِهِ، فكاتَبُ الرحلة محمدُ بنُ جُزي يُبْدي شكَّهُ في بعْضِ ما كان الرحالةُ الكبيرُ يُمْلي عليهِ من قِصصٍ وحكاياتٍ وأخْبارٍ، وهو يُشيرُ إلى ذلك إشارةٍ خاطفةً في المُقدِّمةِ، إذْ يقولُ: "وأوردتُ

جميعَ ما أورده منَ الحِكايات والأخْبـــارِ، ولـــم أتعرَّضْ لِبحثٍ عن حقيقةِ ذلكَ ولا اختَبارٍ!".

وقدْ عُنِيَ المُسْتشْرِقون بالمُقارنةِ بين أقْــوالِ ابنِ بطُّوطةَ وأقْوالِ غيرِهِ مـــن الرحَّـــالين فـــي عصْرِهِ، أو في عصْرٍ يقرُبُ من عصْرِهِ، فبـــدا لهُمْ صِدْقُهُ، والحقُّ أنَّ **ابنَ بطُّوطةَ لـــمْ يتعمَّـــدِ الكذبَ فيما رواهُ، وكانَ يجتَـــهِدُ فـــي تحـــرِّي الحقيقةِ**، أما الحكاياتُ التي نقلَها أحياناً، والتـــي هي من قَبيلِ الخُرافاتِ، فإنَّها تَنِمُّ عن سذاجةٍ فـــي الطبْعِ عندَ ابنِ بطُّوطةَ ، على الرغْمِ مـــن دِقَّـــةِ مُلاحظَتِهِ ونفاذِ بصرهِ وحُسْـــنَ فهمِـــهِ للطبـــائعِ الإنْسانِيَّةِ، وينبغي أن نُدْركَ أنَّ **الرجُلَ هو ابـــنُ**

بيئتهِ وعصرهِ في جُلِّ آرائهِ وعقائدِه، وعلينا أن نُنْصِفَ الرَّحالةَ العظيمَ فننظرَ إليهِ بمقياسِ عصْرِهِ، ومِنَ الظُّلْمِ دونَ شكٍّ أنْ نُطالبَ ابنَ بَطُّوطةَ بأنْ يكونَ مثلَ رحَّالي عصرنا من العُلَماء والمُفكّرينَ الذين يجُوبونَ البلادَ لتقديمِ دراسةٍ علميةٍ صحيحةٍ قائمةٍ على العِلْمِ وصِدْقِ الاستنباطِ ونتيجةِ الاختبارِ، عن سُلطانِ تلكَ البلادِ وأحْوالِهم وحضارتِهِمْ،وحسبُنا أنْ نَنْقُلَ شهادةَ الرحالةِ الأوربيِّ الشهيرِ والعالمِ الكبيرِ **سِتَزنْ** بفضلِ ابنِ بطُّوطةَ حينَ يقولُ:

"أيُّ سائحٍ أوْربيٍّ يمكنُهُ أنْ يفتخرَ بأنَّهُ قضى من الزمنِ ما قضاهُ ابنُ بطوطةَ في البحْثِ

لكَشْفِ المَجْهولِ من أحْوالِ هذا العددِ الكثير مــن البُلْدانِ السحيقةِ، وتحمَّل من مشاقِّ الأسفارِ مـــا تحملَّهُ بصبرٍ وثباتِ وشجاعةٍ؟ بل أيَّةُ أمَّةٍ أوربيةٍ كانَ يُمْكِنُها منذُ خمْسةِ قُرونٍ أن تَجِدَ من أبنائِــها من يجوبُ البلادَ الأجنبيّـــةِ، وهـــو يملــكُ مـــن الاستقلالِ بالحُكْمِ والقُدْرةِ على المُلاحظَةِ والدِّقَّـــةِ في الوصْفِ، ماكان يملكُهُ هذا الرحّالةُ العظيـــمُ! **إنَّ ما جاء به من المَعْلوماتِ الصحيحـــة عــن الجهاتِ المَجْهولةِ من إفريقيةَ لا يقِلُّ في فائدتِــهِ عن مَعلوماتِ لِيُونَ الافريقيِّ!".**

هذا حُكْمُ الإنْصافِ فـــي (ابــنِ بَطُّوطـــةَ) **الرحَّالةِ الأمينِ**، كما يُسمِّيهِ المُستشـــرِقِ دُوزي،

إعْجاباً برحلَتِهِ، وتقْديراً لأمانتِهِ وصِدقِــهِ فيــها، وإنَّ شخصيتَهُ لتَبْدو مِنْ خِــلالِ رحلتِــهِ كلِّــها مُحبَّبةً. وهي تُمثِّلُهُ إنْساناً يقِظ الوجــدانِ رقيــقَ العاطفةِ شديدَ الحساسيةِ والتأثُّرِ، حيَّ الضمــيرِ، شديدَ الورَعِ والتَّقْوى، مُحبّــاً لِوالديْــهِ، مُعَظِّمــاً للأتْقِياءِ والصَّالحينَ، حريصاً على زيارةِ قُبورِهُمْ للتبرُّكِ بهم، وعلى روايةِ ما يُنْسَبُ إليــهم مــن كَرامات وأعمْال برٍّ وإحْسانٍ! **وقد تدْفعُهُ سَذاجةٌ في طبْعِهِ إلى روايةِ أشْــياء يرفُضُــها العقــلُ والتمحيصُ**، ولكنَّ الرجلَ ــ كما قّدمنا ــ هــو ابنُ عَصْرِهِ وبيئَتِهِ وعقائدِها، وحسبُه أنَّــهُ كــانَ يتحرَّى الحقيقة جُهْدَه، ولم يتعمَّدْ أنْ يكذِبَ أو أنْ

يُحاولَ الغشَّ في أقْوالهِ، والرحلةُ كلُّها تَشِفُّ عن أخْلاقِ الرجلِ القويمةِ وصِفاتِهِ الطيِّبَةِ، من صَفاء نفْسٍ وطهارة قلبٍ ونقاء سَريرة. كما تنمُّ عن شخصيتِهِ المُثقَّفةِ: فقدْ كانَ ابن بطُّوطة عالِماً فقيهاً أديباً، مُؤهَّلاً لِتَولِّي القَضاء والحُكْمِ بينَ الناسِ، وقد دُعيَ لذلك حينَ نصَّبهُ ركْبُ الحُجاجِ من تُونُسَ قاضياً بينهُمْ، في المرحلةِ الأولى من رِحْلتِهِ، وهُوَ ما يزالُ شاباً في الثانيةِ والعشرينَ، اعترافاً منهُمْ بِعلْمِهِ وورَعِهِ وتفقُّهِهِ في الدِّينِ ونُضْجِهِ ورُشْدِهِ.

3

في هذا الكِتاب نُحـــاوِلُ أنْ نُقــدِّمَ **عَرْضـــاً مُوجزاً لِرِحْلةِ ابنِ بطُّوطةَ**، نُرافقُ خِلالَهُ رحَّالتنــا المغربيَّ الخالدَ منذُ خروجِهِ من طنجةَ عامَ 725، إلى عودتِهِ الأخيرةِ إلى وطنِهِ عامَ 754هــ بعـــد ثمانيةٍ وعشرينَ عاماً مـــن التَّجْـوالِ والرِّحْلـــةِ والتَّنقُلِ، في أقْطارِ الأرْضِ؛ ولكَيْ تسْهُلَ علينــــا مُتابعةُ جَوّابِ الآفاقِ خِلالَ هذهِ السنينَ الطّويلـــةِ، نَقْسِمُ **العَرْضَ إلى مَراحِلَ مُتتابِعةٍ**، نُلاحقُ خِلالها مسيرةَ ابنِ بطوطَة مِنَ البدايةِ إلى النهايةِ، نطْوي معهُ المسافاتِ، ونشْهَدُ أطرفَ المشـــاهِدِ، وكـــلَّ

رجائِنا أن يجِدَ القارىءُ فيما نُقدُّمُهُ مِنْ مراحــــلِ الرِّحْلَةِ الفائدةَ والمُتْعةَ والتسليةَ، وأن يُدرِكَ فــي نِهايةِ المطافِ عِظَمَ الجُهودِ والتضْحيــاتِ التـــي قدَّمَها الرَّحالةُ العظيمُ في القرنِ الهجري الثــلمنِ، ليكتَشِفَ المَجْهولَ، في عصْرٍ كانتِ المواصــلاتُ فيهِ لاتعرِفُ البُخارَ ولا الكهْرباء ولا السيّارة ولا الطيّارة!.

أما مراحِلُ الرِّحلةَ فهيَ **تُواكِبُ خـــطَّ ســيرِ الرحَّالةِ في تنقُّلاتِهِ** وأسْفارِهِ: المغربُ العربيُّ ـــ الديارُ المُصريةُ ـــ ديارُ الشام ـــ الحجازُ والديارُ المُقدَّسةِ ـــ العراقُ وفارسُ ـــ الجزيرةُ العربيـــةُ ـــ بلادُ الرُّوم وما جاورها ـــ الهندُ وجُزُرُ الـــهنْدِ

الشرقيةُ ـــ الصَّينُ ـــ العـــوْدةُ إلـــى المغـــربِ والأنْدلُسِ ـــ السُّودانُ

وقبلَ أنْ نختمَ هذا التمهيدَ، وننْطلِـــقَ مـــعَ الرحّالةِ المغربيِّ الخالدِ فـــي مراحـــلِ رحلتِـــهِ الطويلةِ لابُدَّ لنا من مُلاحظةٍ أخيرةٍ، نتحدّثُ فيـــها عن **تفوُّقِ المغاربةِ المسلمينَ في فنِّ الرحْـــلاتِ، وتبْريزِهم في هذا النوعِ الأدبيِّ على المشـــارقةِ،** وإكثارهمْ من التأليفِ فيـــه، والحـــقُّ أنَّ هُنـــالكَ أسباباً جعلتِ المغاربـــةَ يُكـــثرونَ مـــن تـــأليفِ الرَّحْلاتِ في كُلِّ العُصورِ، وأهمُّها الرحلة إلـــى المشْرقِ **لتأديةِ الفريضةِ، أو لطلـــبِ العِلْـــمِ،** أو الرِّحْلةُ **للسياحةِ عامَّةً، أو لِلسَّفارةِ عن المغْـــربِ**

لدى الدولِ الأُخْرى، أو **مرافقةِ رِجالِ الدولةِ فـي أسفارِهمْ** لتسجيل مايتمُّ خِلالها، وفي رحلةِ ابـــنِ بطُّوطةَ نجدُ بعضَ تلكَ العواملِ التي دفعتْ بـــهِ إلى مُغادرةِ المغربِ لِيصْبحَ واحداً مـــن كِبـارِ الرَّحالةِ العَرَبِ المُبرِّزينَ الخالدين.

المرحلة الأولى

بداية المطاف في المغرب العربي

غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مسْقَطَ رأسِهِ **طنْجةَ** يــــومَ الخميسِ، الثاني من رجبٍ 725 هـــ قاصِداً الحـــجَّ إلى بيتِ الله الحرامِ وزيارةَ قبرِ رَسُولِهِ الكريـــمِ، وكانَ والداهُ على قيْدِ الحياةِ، فودَّعــــهُما وســـافرَ مُنْفرِداً، وَهُوَ يُعاني الألمَ لِفراقِهما، إلى أنْ وصلَ إلى مدينةِ **(تِلِمْسان)**، فأقامَ فيها ثلاثةَ أيّـــامٍ، ثُـــمَّ تابعَ سفره إلى مدينةِ **(مِليانَةَ)**، فوصلَ إليْها فـــي مَوْسمِ الحرِّ، وبعْدَ عشرةِ أيامٍ من إقامتِـــــهِ فيـــها انضَمَّ إلى رفقةٍ من تُجّارِ تُونُسَ، فوَصَلَ معــــهُمْ

إلى **مدينةِ الجزائرِ** حيثُ أقامُوا بضاحيةٍ منها أياماً، قبْلَ أن يُتابِعَ الرَّكْبُ سيرهُ إلى مدينة **(بجايَةَ)**، وفي هذهِ المدينةِ أصيبَ ابنُ بطُّوطَة بالحُمَّى، فأشارَ عليهِ بعضُ رِفاقِهِ بالإقامةِ فيها حتى يُشفى مِمَّا ألمَّ بِهِ، فأبى وصمَّمَ على مُواصلةِ رحلتِهِ، مُفضِّلاً أن يلقى ربَّه ـ إذا انتهى أجلهُ ـ وهو في طريقهِ لتأديةِ فريضةِ الحجِّ، غيرَ أنهُ تخفّفَ من ثِقل متاعِهِ، وباعَ دابّته، وكان ذلك بنصيحةٍ من أحدِ رفاقِهِ، على أنْ يُعيرهُ دابةً من عندِهِ، ليُصبْحَ سيرهُ خفيفاً، ولايشغلَ نفسه بِمتاعِهِ وزادِهِ ، فالركبُ يجدٌّ في سيْرِهِ، خوْفاً من غارةِ البُداةِ على القوافِلِ في ذلكَ

الطريق؛ وقد اشتدتْ وطأة الحُمّى على ابن بطّوطة، فكان لايستطيعُ التّماسكَ فوق الدّابةِ، فيشُدُّ نفسَهُ بعمامتِهِ فوقَ السرْجِ، لكيْلا يسقُطَ من الضَّعْفِ، وكذلك قطَعَ مدينة (**قُسنطينة**) ومدينة (**بُونةَ**)، والخوفُ من مُداهمةِ قُطّاعِ الطّريقِ يزيدُ في كرْبهِ ومرضِهِ حتى وصَلَ إلى مدينة (**تونُس**)، وفي ظاهِرها كان عددٌ من أهلِيها ينتظرونَ قُدومَ بعضِ أصحابهمْ في الرَّكْبِ، أمّا ابنُ بطّوطةَ فلمْ يُقبلُ عليهِ أحدٌ، فأحسَّ بالوحشةِ والحُزْنِ، واستبدَّ بهِ الحنينُ إلى أهلِهِ فدَمِعَتْ عيناهُ، ورآه بعضُ المُستقبلينَ فأشفقَ عليهِ، وراحَ يبذُلُ جُهدهُ في مؤانستِهِ حتى سُرِّي عنهُ.

وأقامَ ابنُ بطُّوطة في مدينةِ تُونس مُدّة، شهِدَ فيها احتفالَ الناسِ بعيدِ الفِطْرِ، ثُمَّ انتظرَ حتى **تمَّ إعْدادُ ركْبِ الحُجّاجِ القــاصدين إلــى الحجــازِ**، فانضمَّ إليهمْ، وعرَفَ هؤلاء الحجّاجُ فضْلَ ابــنِ بطُّوطةَ، **فنصَّبوه قاضياً** عليهم، لِعلْمِهِ وتفقُّهِهِ في الدينِ، فأنِسَتْ نفسُهُ بذلك، وزايلتْهُ وحْشتُهُ؛ ثـــم غادرَ الرَّكْبُ مدينةَ (تُونـــس) ســالِكاً الطريــق الساحليَّ، فاجْتازَ (**سُوسة**) و (**صفاقس**) حتـــى وصَلَ إلى (**طرابلس**) وكان في الرَّكبِ عددٌ كبيرٌ من الفُرْسانِ والرُّماةِ، فلم يجْرُؤ أحدٌ من البُــداةِ على اعتراضِ طريقهمْ.

وفي طرابلسَ تزوّجَ ابنُ بطُّوطةَ من ابْنِةِ تُونسي من حُجّاجِ الرَّكْبِ، ولم يشأ انتظار تحرُّكِ الرّكْبِ إذ آثر المُسافِرون فيه التريُّثَ في طرابلُس، خوْفاً من البرْدِ والمطرِ، فانطلقَ ابنُ بطُّوطةَ، ومعهُ زوجتُهُ وجماعةٌ من قبيلةِ المصامدَةِ، وتجاوزوا في طريقِهِمْ (مِسْلاتة) و(مِسْراتةَ) و (قُصورَ سُرْتَ) وتمكّنوا من الإفْلاتِ من قبائلِ البُداةِ التي كادتْ توقعُ بهم، حتى وصلُوا إلى (قُبَّةِ سلامٍ)، حيثُ أدركَهُم فيها الرَّكْبُ المُتخلِّفُ في طرابلسَ؛ ووقعَ شجارٌ بينَ ابنِ بطُّوطةَ ووالدِ زوجتِهِ، فطلَّقها، وتزوَّجَ أُخْرى، هي ابنةُ أحدِ الفاسيِّين من طلبَةِ العِلْمِ،

واحْتفالاً بفرحةِ العُرْسِ أوْلَمَ ابنُ بطُّوطةَ للرَّكْبِ كُلهِ وليمةً كُبرى، حيثُ قضى المُسافِرونَ يوماً كاملاً في مرَحٍ وهناءةٍ وسُرورٍ قبْلَ أنْ يُتابِعوا مسيرتَهم نحو الإسكندرية.

ويُحدثُنا ابنُ بطُّوطة أنَّهُ غادَرَ طرابلس في أواخرِ شهرِ المُحرَّمِ من عام 726 هـ، ووصلَ معَ الركبِ إلى **الإسكندريةِ** في أوَّلِ جُمادى الأولى، بعدَ ثلاثةِ أشْهرٍ من السفَرِ، وقد مرَّ عليهِ **منذُ خُروجهِ من طنْجةَ عشرة أشهرٍ كاملةٍ**، قضاها في اجتيازِ المغربِ العربيِّ إلى الديارِ المِصريَّةِ.

المرحلة الثانية

ابن بطُّوطة في الديارِ المصرية

أُعْجبَ ابنُ بطوطة بكُلِّ ما شاهدَهُ في الديارِ المِصريةِ، وقد نالتِ **الإسكندريَّةِ** قسْطاً وافِراً من إعْجابِهِ، فتحدَّث عنْ أبْوابِها ومَرْساها العظيم الذي لم يَشْهدْ مثْلَهُ في موانيء الدُّنْيا التي رآها، باستثناء بعض المراسي في الهِنْدِ والصّينِ وغيرهما، وأعْجبهُ من جُمْلةِ الغرائِبِ التي رآها في الإسْكندريَّةِ **عمودُ السَّواري**، الهائلُ المنحوتُ من الرُّخامِ، في قِطْعةٍ واحدةٍ، يُطاوِلُ في السُّموِّ والارْتِفاعِ أعلى أشجار غابةِ النخيلِ التي نُصِبَ العمودُ على قاعدةٍ حجريةٍ فيها.

ومن غرائبِ ما شـاهدَ فـي الإسـكندريةِ عمامةُ قاضيها عماد الدين الكِنْدي "فقدْ كانَ يعْتمُّ بعمامةٍ خرقَتِ المُعْتادَ لِلعَمائمِ ـ كمـا يقـول ـ ولمْ أرَ في مشارقِ الأرضِ ومغارِبِـها عمامـةً أعظمَ منها، رأيتُهُ يوماً قاعداً في صَدْرِ مِحْرابٍ، **وقد كادتْ عمامتُهُ أن تمْلأ المَحْراب!!**".

وكانَ ابـنُ بطُّوطـةَ خِـلالَ مُقامِـهِ فـي الإسكنْدريةِ حريصاً على مُقابلةِ العُلماءِ وكُلِّ مَنْ يسْمعُ أخبارَ كراماتِهِمْ من الأوْلياءِ والصـالحين، وقد لقِيَ في جُمْلةٍ من لَقِيَ منهم **واحِداً من كبـارِ الزُّهادِ العُلماءِ، واسمُهُ بُرهانُ الدينِ الأعـرجُ،** وأقام في ضِيافتِهِ ثلاثة أيامٍ، وكان لَـهذا العـالمِ

الزاهدِ الورِعِ الخاشِعِ ـ كما يصِفُهُ ـ أثرٌ بــالِغٌ في حياةِ ابنِ بطُّوطـــة، إذ استشــفَّ مــن رُوحِ الشابِّ المغربيِّ حُبَّـــه لِلتجــوالِ فــي الأرْضِ، وارتيادِ الآفاقِ البعيدة، والسياحةِ في البلادِ، **فتنبّأ لهُ بِزيارةِ الهندِ و الصِّينِ**، ولنُصْــغِ إلــى ابــنِ بطُّوطةَ وهو يُحدِّثُنا عن ذلك بقوْلِهِ:

"دخلتُ عليهِ يوْماً فقالَ لــــي: أراكَ تُحِــبُّ السياحةَ والجوَلانَ في البِلادِ؟ فقلتُ لهُ: نعَمْ إنِّـــي أحبُّ ذلك، ولم يكُنْ حينئِـــذٍ خطــرَ بخـــاطِري التوغُّلُ في البِلادِ القاصيةِ من الـــهندِ والصّيــنِ، فقالَ: لا بُدَّ لكَ ـــ إنْ شاء الله ـــ من زيارةِ أخــي فريدِ الدينِ بالهنْدِ، وأخي رُكن الديـــن زكريّـــاء

بالسِّنْدِ، وأخي بُرْهانِ الدين بالصّين، فإذا بلغتَهم فأبْلِغهُمْ مني السَّلامَ! فعجبتُ من قولِهِ، وألْقيَ في رُوعي التوجُّهَ إلى تلْكَ البِلادِ" ومن حديثِ ابن بطُّوطة نعلمُ أنَّ الرحالةَ العظيمَ لم يكُنْ قبل لِقائِهِ بالزاهِدِ المذكورِ في الإسكندريةِ يُفكِّرُ في الإيغالِ في رِحْلاتِهِ إلى أقاصي بلادِ الهندِ والسِّنْدِ والصّينِ، فجاءتْ **كلماتُ الزّاهِدِ المصْريِّ ترسُمُ لهُ الآفاق البعيدة**، وتحفِزُهُ على ارتيادِها، وتُبشِّرُهُ بالوُصولِ يوْماً إليها، وتُنمِّي غريزة حُبِّ الأسْفار في أعماقِ نفْسِهِ، وهكذا يكونُ **لِمصرَ فضْلٌ في تنْميةِ ملكةِ الارتحالِ** لزيارةِ أقاصي المعْمورةِ في نفسِ **ابنِ بطُّوطةَ**، وهو نفْسُهُ

يُحدِّثُنا عن رجُلٍ آخرِ من المصْريِّين الصـالحين، سمعَ عنهُ وهو في الإسكندريةِ أنَّـهُ مـن كِبـارِ الأولْياءِ المُنقَطعين لِلعبادةِ في بعـضِ الزَّوايـا، واسمُهُ **الشيخُ أبو عبد الله المُرْشديِّ**، فرَحَلَ إلى مُنْيةِ بني مُرْشدٍ لكيْ يلقاهُ، وقضى عندهُ ليلةً رأى فيها حُلماً عجيباً فسَّرهُ الشيخُ لهُ بأنَّهُ سوفَ يحُـجُّ ويزورُ قبرَ النبيِّ، ثُمَّ يتجوَّلُ فـي بـلادِ اليمـنِ والعراقِ وبلادِ التُرْكِ وبلادِ الهِنْدِ، ويبْقى بها مُدَّةً طويلةً! ولقدْ غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مُنْيةَ بني مُرْشِـدٍ وقد استقرَّ في نفْسِهِ الإيمانُ بالوُصولِ إلى البِـلادِ التي ذكرها الشيخُ لهُ، والتي أصبحَ يتشوَّقُ إلـى شدِّ الرِّحالِ إليها.

وانتهَزَ ابنِ بطُّوطةَ فرْصةَ وجودِهِ في الديارِ المِصْريّةِ ليَطوفَ فـــي أرْضِ مِصْــرَ ويــزور أمهاتِ المُدُنِ فيها مثل **(دمَنهُور)** "وهي مدينـــــةٌ كبيرةٌ، جبايتُها كثيرةٌ، ومحاسِنُها أثـــيرةٌ" ومثـــل **(دِمياط)** التي أعجبتْهُ لِكُثرةِ أشجارِ الموْزِ فيـــها، وقد أشار إلى أنَّ الخُروجَ مـــن المدينَـــةِ يكـــونُ بتصْريحٍ من الوالي، فمنْ كانَ من الأعْيـــانِ أوْ من ذوي المنْزلةِ الرفيعةِ مُنِح تصْريحـــاً خطِّيـــاً يُبرِزُهُ للحُرّاسِ عندَ بابِ المدينةِ، أمّا عامّةُ الناسِّ فتُوضَعُ على ذِراعِ الواحدِ منهم علامةٌ مطبوعةٌ، لِتكونَ بمثابة تصْريحٍ لهُمْ بِمُغـــادرةِ المدينـــةِ إذا أرادُوا ذلكَ!

ومثلِ مدينةِ **(أسيوط)** التي أعجبتْهُ أسـواقُها البديعةُ، ومدينة **(قُوص)** التي أشارَ إلـى كُـثرةِ مساجِدِها ومدارِسِها، ومدينةِ **(أسْنا)** التي وصفَـها بأنَّها "مدينةٌ عظيمةٌ، مُتَّسِعةُ الشوارِعِ، ضخمـةُ المَنافِعِ، كثيرةِ الزوايا والمدارسِ والجوامِعِ، لـها أسْواقٌ حِسان وبساتينُ ذاتُ أفْنانٍ".

أما **(القاهِرةُ)** عاصمةُ الديارِ المِصْريّةِ فقـدْ أدهشتْهُ بكثرةِ عمارتِها وبالِغِ بهائها ونضارتِـها، فهي "تموجُ موْجَ البحرِ بِسُكّانِها، وتكادُ تضيـقُ بهم على سعةِ مكانِها وإمكانِها" ويُقالُ: فيها "مـن السَّقائينَ اثنا عشر ألف سَقّاءِ على الجِمالِ" وفـي نيلِها من المراكِبِ "ستةٌ وثلاثون ألفـاً للسُلطانِ

والرعيَّةِ، تمرُّ صاعِدة إلى الصعيدِ، ومُنْحدرة إلى الإسْكندريّةِ ودِمياط بأنواعِ الخيراتِ والمرافِقِ".

وزارَ ابنُ بطُّوطة **مسجدَ عمرو بنِ العاص** وعدداً كبيراً من المدارسِ "لايُحيطُ أحدٌ بحصْرِها لكثرتِها" كما زارَ المُستشْفى الكبيرَ **(المارِسْتان بين القصْرين)** وقال إن الواصِفَ "يعجزُ عن وصْفِ محاسِنِهِ، وقدْ أعِدَّ فيه من المرافِقِ والأدويةِ ما لا يُحصرُ!".

لقدْ خلَّفتِ القاهرة أطْيبَ الأثر في نفْسِ، ابنِ بطُّوطةَ، فأفاض في وصْفِ محاسِنِها، **وأمّا النّيلُ فقد فضَّلهُ على أنْهارِ الأرْضِ كُلِّها** فقالَ: "ونيلُ

مِصْرَ يفْضلُ أنهارَ الأرْضِ عذوبةَ مذاقٍ واتّساعَ قطرٍ وعِظَم منْفعةٍ، والمدنُ والقُرى بضفّتيْهِ مُنتظمةٌ ليسَ في المَعْمورِ مثلُها، ولا يُعلمُ نهرٌ يُزرعُ عليهِ ما يُزرَعُ على النيلِ" وقد لاحظَ ابنُ بطّوطة عندما ركِبَ النّيلَ أن المسافرَ فيه "لايفْتقِرُ إلى استِصْحابِ الزّادِ لأنّهُ مهما أراد النُزولَ بالشاطىءِ نزَلَ لِلوُضوءِ والصّلاةِ وشَراءِ الزّادِ وغير ذلكَ، والأسْواقُ متصلةٌ من مدينةِ الإسكندريةِ إلى مصرَ (القاهرة) ومنْ مصر إلى مدينة أسْوان من الصّعيد".

وتحدّث عن الأهْرام فقالَ إنّها "من العَجائبِ المذكورَةِ على مرِّ الدُّهورِ" و "هي بناء بالحَجَرِ

الصَّلْدِ المنْحوتِ، مُتَتَــاهي السُّــمُوِّ (الارتفــاع) مُستديرٌ، مُتّسعُ الأسْفلِ، ضيِّقُ الأعلى، كالشَّــكلِ المخْروطِ، ولا تُعْلَمُ كيفيةُ بنائها".

ووصَفَ ابنُ بطُّوطةَ **أهلَ مصْرَ** بأنــهُم "ذوو طربٍ وسُرورٍ ولهْوٍ" ويقولُ: "شاهدتُ بها مــرَّةً فُرجةً بسبب بُرْءِ الملكِ النّاصِرِ من كَسْرٍ أصــابَ يدهُ، فزيَّنَ كُلُّ أهــلِ سُــوقٍ سُــوقهم، وعلَّقــوا بحوانيتهم الحُلَلَ والحُليَّ وثيابَ الحرير، وبقــوا على ذلك أيّاماً!"

والملكُ الناصرُ الذي يذكُرُهُ، والــذي كــان سُلطانَ مِصْرَ عندما وصلَ إليْها ابنُ بطُّوطة هــو تاسِعُ سَلاطينِ المماليكِ البحريِّين فـــي مِصْــرَ،

محمد بنُ قلاوون، والرحَّالةُ المغربيُّ يكثرُ من الثناءِ عليهِ، والتغنّي بأفضالِهِ وحُسْن سِيرتِهِ، ويُعدِّدُ من فضائلِهِ برَّهُ بقوافلِ الحُجّاجِ وإحْسانِهِ إلى الضُّعفاءِ والمُنْقطِعين منهم في كُلِّ عامٍ، "وكفاهُ شرفاً ــ كما يقولُ ابنُ بطُّوطة ــ انتماؤُه لخِدمةِ الحرمينِ الشريفيْن"، كما ذكرَ حِرْصَهُ على نشرِ العدالةِ في ممْلكَتِهِ، إذْ كان يقعُدُ بنفسِهِ للنظرِ في المظالِمِ، في يوميْنِ من كُلِّ أسبوع، لتلقِّي شكاوى الناس، والعملِ على إنصافِهِم، ويقعُدُ معهُ القُضاة الأربعةُ (لِكُلِّ مذْهبٍ قاضيه) عن يسارِهِ، ليتمَّ إحقاقُ الحقّ، وإنْصافُ المظلومين وردْعُ الظالِمينَ.

المرحلة الثالثة

ابن بطوطة في ديار الشام

في مُنتصِفِ شعبانَ عام 726 هـ **غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مِصْرَ إلى الشام** عن طريق **بُلْبيْسَ والصالحيَّةِ**، وكان طريقُ السفرِ في **صحْراء سيناء** مُزوَّداً بكُلِّ ما يكفَلُ الرّاحةَ لِلمُسافرين، ففي كُلِّ منزلٍ (محطّةٍ) من منازِلِ الطريقِ فُنْدق (ويُسمّى الخانَ) ينزلُهُ المسافرون بدوابِّهم، وبخارجِ كُلِّ خانٍ ساقيةٌ للسبيلِ، وحانوتٌ يشْتري منهُ المسافرُ ما يحْتاجُ إليهِ لنفسِهِ ودابّتِهِ. وهكذا اجتازَ ابنُ بطُّوطةَ المنازِلَ في (**السَّوادةِ والمُطَيْلبِ والعريشِ والخرّوبةِ**) حتى بلَغَ (**قطْيا**)

وهي المحطّةُ التي فيها "توخذُ الزّكاةُ من التجارِ، وتُفتَّشُ أمتعتُهم، وفيها الدواوينُ والعُمّالُ والكُتّابُ، ولا يَجوزُ عليها أحدٌ من الشامِ إلا ببراءةٍ (تصريحٍ خطّيٍّ) من مِصْرَ، ولا إلى مِصْرَ إلا ببَراءةٍ من الشّامِ، احتياطاً على أمْوالِ الناسِ، وتوقّياً من الجّواسيسِ!

وبوصول ابن بطّوطة إلى مدينة **(غزّة)** حلَّ في أوَّلِ بلادِ الشامِ مِمّا يلي مِصْرَ، وقدْ وجدَها "كثيرة العَمارةِ، حسنَة الأسْواقِ، بها المساجدُ الكثيرة، والأسْوارُ عليها".

ومن غزّة سافرَ ابنُ بطّوطة إلى **مدينة الخليل**، وزارَ مسجدّها المبنيَّ بالصخرِ

المنْحوتِ، وفيهِ الغارُ المُقدَّسُ، وقُبورُ إبراهيمَ وإسحق ويعقوبَ؛ وانتقلَ من الخليلِ إلى بيْتِ المقْدِسِ، **حيثُ عَرَجَ النبيُّ العربيُّ إلى السَّماءِ، وهو يصِفُ المدينةَ بقوْلِهِ: "البلدةُ كبيرة مُنيفةٌ مبنية بالصخرِ المنحوتِ" وأمّا مسجدُها العظيمُ فهُوَ "من المساجدِ العجيبةِ الرائقَةِ، الفائقةِ الحُسْنِ، يقالُ: إنَّهُ ليسَ على وجْهِ الأرضِ مسجدٌ أكبرُ منه، ولهُ أبوابٌ كثيرةٌ، والمسجدُ كلُّهُ فضاء غيرُ مسْقوفٍ، إلا المسجدَ الأقْصى** فهو مسقوف، في النهايةِ من إحْكامِ العملِ وإتقانِ الصَّنعةِ، مُموهٌ بالذهَبِ والأصْبغةِ الرائقةِ.. **وقُبّةُ الصخرةِ من أعْجبِ المباني** وأغربِها شكْلاً..

وهيَ قائِمةٌ على نشرٍ (مُرتفعٍ) في وسطِ المسجدِ، يُصْعَدُ إليها في درجِ رُخامٍ، ولها أربعةُ أبـــوابٍ، والدائرُ بها مفــروشٌ بالرُّخـــامِ أيْضـــاً، مُحكَـــمُ الصنعةِ، وكذلك داخلها، وفي ظاهرها وباطنِــــها من أنْواعِ التزويقِ، ورائقِ الصنعةِ مــــا يُعجِــزُ الواصفَ، وأكثرُ ذلك مُغشى (مُغطّى) بـــالذهبِ، فهي تتلألأُ نُوراً، وتلمعُ لمَعان الـــــبرْقِ، يحــارُ بصرُ مُتأمِّلها في محاسِنِها".

وتنقَّلَ ابنُ بطُّوطةَ في (**عسْقلانَ**) و(**الرَّملةِ**) و (**نابلُس**) ووصفَ أهمَّ ما شهِدهُ في هذهِ المــدنِ الفلسطينيةِ، ثُمّ سافرَ إلى مدينةِ **عجْلون**، ومنــــها اتّجَهَ نحو الساحلِ، ماراًّ **بالغوْرِ**، "وهُوَ وادٍ بيـــن

تِلالٍ، به قبرُ أبي عُبيدةَ بـــن الجَــرّاحِ" الفـــاتحِ الإسْلاميِّ العظيمِ، فزارهُ وبـــاتَ فـــي الزاويـــةِ المبنيةِ عليهِ ليلتَهُ، قبلَ أنْ يُتابِعَ الطريـــقَ إلـــى مدينةِ (**عكَّة**) وكانتْ يومذاك خراباً، ثُـــمَّ ســـافَرَ منها إلى مدينة (**صُورٍ**)، وهي خـــرابٌ أيْضـــاً، وانتقَلَ مِنْها إلى مدينةِ (صيْداء) فأعجبته بكـــثرةِ فواكِهِها، ونزلَ في ضيافةِ قاضيها، ثُـــمَّ رحَـــلَ عنْها إلى (**طبَريَّة**) فشهِدَ حمّاماتِها العجيبةَ، ثـــم سارَ عنها إلى (**بيْروت**) وكانتْ يومذاك "مدينـــةً صغيرةً" فلمْ يقفْ عندَها طويلاً، وتـــابع طريقَـــهُ إلى مدينة (**طرابُلُـــسَ**) فتوقَّـــفَ فيـــها ليَصِـــفَ ضخامتها: "فهي إحْدى قواعِدِ الشـــامِ وبُلْدانِـــها

الضخامِ، تخترِقُها الأنْهارُ، وتحُفُّ بِها البساتينُ والأشْجارُ.. ولها الأسواقُ العجيبةُ والمسارحُ (المراعي) الخصيبةُ، والبحرُ على مِيلَيْنِ منها".

ثم ارتحلَ إلى (حِمْصَ) فوصفها وتحدَّثَ عن أهلِها: "وأهلُ حمصَ عربٌ لهمْ فضلٌ وكرمٌ"، وبعد أن زارَ **مسجِدَ خالدِ بنِ الوليدِ** فيها، سافر مِنْها إلى (حماةَ) فوصف المدينة وبساتينَها ونواعيرها ونهرَ العاصي الذي يشُقُّها، وأبدى إعجابَهُ بِفواكِهِها الكثيرةِ، ومنها المشمشُ اللُّوزيُّ، "إذا كسرْت نواتَهُ وجدْتَ في داخِلِها لوزةً حُلوةً". ومَنْ حماةَ ارتحلَ إلى مدينةِ

(المعرَّةِ) فوجدَها "مدينةً كبـــيرة حســـنةً، أكـــثرُ شجرِها التينُ والفُستُقُ، ومِنْها يحمَلُ إلى مِصْـــرَ والشامِ".

وقبل أن يرتحلَ إلى مدينةِ حلَبَ، يجتازُ ابـنُ بطُّوطةَ بمدينةِ **سَرْمين**، ويتحـــدثُ عـــن كَـثْرةِ بساتينِها وشجرِ الزيتونِ فيها، ويذكر أنواعاً مـــن الصّابونِ يُصْنعُ فيها، ومنهُ "الصابونُ المطيَّـــبُ، لِغسلِ الأيدي، ويصْبِغونه بالحُمْرةِ والصُفْرةِ" وقد استطاعَتْ **(حلَبُ)** أن تحُوزَ بالغ إعجاب الرحّـالِ المغربيِّ، فوصفها بقولِـــهِ: "المدينـــةُ الكُـبرى، والقاعدةُ العُظمى" وأسهبَ في وصـــفِ قلعتـــها وأسواقِها ومسجدها الجامِعِ ومدارسِها، والبساتينِ

المُمتدة على شاطىء نهرِها، وقـــد أخطـــأ فـــي تسميةِ النهرِ، فذكر أنَّه العاصي الذي يمرُّ بحماة، وهو سهْوٌ ووهْمٌ، ويبدو أن اسْمَ (قُويْــقٍ) غــاب عن ذاكِرتِهِ، ولكنَّ صــــورةَ المدينــةِ الكُــبْرى بجلالِها وعظمَتِها ظلَّتْ في ذاكرتِهِ، فأنهى وصفَهُ لها بقوْلِهِ: "**وهي من المُدنِ التي تصلُحُ للخِلافةِ**".

وتابعَ ابنُ بطُّوطةَ رِحلتــهُ إلــى **إنطاكيَّــة واللاذقيّة وجبلِ لُبنانَ وبَعلبَــك** إلــى أنْ حــطَّ الرِّحال في **دِمشْقَ** في التاسعِ من شهرِ رمضــانَ عام 726 هـ، وقد أخذتْ عاصمةُ الأمويين بلُبِّهِ، فاعترفَ بأنَّها "**تفضُــلُ جميــعَ البــلادِ حُسْــناً**" وتتقدَّمُها جمالاً، وكلُّ وصْــفٍ وإنْ كــال فــهو

قاصِرٌ عن محاسِنِها" وكان أوَّلُ ما حَرِصَ على مُشاهدتِهِ فيها هُوَ جامعها "المعروفَ **بجامعِ بني أمية، وهُوَ أعظمُ مساجدِ الدُّنْيا** احتفالاً، وأتقنُها صناعةً وأبْدعُها حُسْناً وبهْجةً وكمالاً، ولا يُعلَمُ له نظيرٌ ولا يوجدُ له شبيهٌ" أما قُبَّةُ الجامعِ الهائلةُ فإنَّها تبدو عاليةً، ويراها الناسُ من أيَّةِ جِهةٍ في المدينة؛ وأما صحنُ الجامعِ فهو فسيحٌ يجتمعُ فيه أهلُ المدينةِ في العَشيّاتِ، فمنْ قارئ ومُحدِّثٍ، ويكونُ انصرافُهُمْ بعدَ صلاةِ العِشاءِ الأخيرةِ، وفي الرُّكْنِ الشرقيِّ من الجامعِ خِزانةٌ كبيرةٌ فيها المصحفُ الكريمُ الذي بعثَ به الخليفةُ الراشدُ الثالثُ عثمانُ إلى الشامِ، وتُفتحُ هذه الخِزانةُ كُلَّ يوم جُمعةٍ بعدَ الصلاةِ، فيزدحِمُ

النّاسُ على لثْمِ المُصْحفِ، وقد انتبَهَ ابنُ بطُّوطـةَ إلى أنَّ الحياةَ الاقتصاديةَ تتركَّزُ فـي الأسْـواقِ المُحيطةِ بهذا المسجدِ العظيمِ، من كُلِّ جانبٍ مـن جوانبِهِ، وعنْدَ كُلِّ بابٍ من أبوابِهِ الأربعةِ، بحيثُ يطلُّ كُلُّ بابٍ منها على مرْفقٍ هامٍ من مرافِـق المدينةِ وبعضِ أسواقِها المشهورةِ.

ووصَفَ ابنُ بطُّوطة **حلقاتِ التدريس فـي جامعِ بني أمية**، حيثُ تُدرَّسُ فيها فُنونُ العِلْـمِ، وشهِدَ العالمَ الفقيه **ابن تيميَّة** وهو يعِـظُ النّـاسَ يومَ الجُمعةِ، على مِنْبرِ الجامِعِ، وكان يومـذاك كبيرَ فُقهاءِ الحنابلةِ، وعالم دمشقَ الأكبرَ، وكـان أهلُ دمشقَ يُعظِّمونهُ أشدَّ التعظيمِ.

وتحدَّث ابنُ بطُّوطةَ عن **أهالي دمشقَ** وقال إنَّهم لايعملون يومَ السبتِ عمَلاً، وإنَّما يخْرُجون إلى المُنْتزهاتِ وضِفافِ الأنْهارِ، ودَوْحاتِ الأشجارِ، بينَ البساتينِ النَّضِرةِ والمياهِ الجاريةِ، ويقْضون يومَهم إلى الليل، في راحةٍ وبهجةٍ واستمتاعٍ بجمالِ الطبيعةِ وفِتْنتِها، وأشادَ ابنُ بطُّوطة بحُبِّ أهلِ دمشقَ لعملِ الخيْرِ والبرِّ والإحْسانِ، وتحدَّثَ عن الأوْقافِ الكثيرةِ التي خصَّصوها لِتقديمِ العَوْنِ للمُحْتاجين: فأوقافٌ لإعانةِ العاجزينَ عنِ القيامِ بفريضةِ الحجِّ، وأوقافٌ لفِكاكِ الأسْرى، وأوقافٌ لأبناء السَّبيلِ من الغُرباء، وأوقافٌ لِتعديلِ الطرُقِ في المدينةِ

ورصْفِها، وأنْواعٌ أخرى من الأوقافِ، لا تخطـرُ على البالِ، وهو يروي حكاية نوعٍ منها بِقولِـهِ: "مررتُ يوماً ببعضِ أزقَّةِ دمشْقَ فرأيتُ مملوكـاً صغيراً (عبداً صغير السِنِّ) قـد سـقطتْ منـهُ صحفةٌ (صحنٌ) من الفُخَّار الصينيِّ، فتكسَّـرت، واجتمعَ عليهِ الناسُ، فقالَ لهُ بعضُـهم: اجْمـعْ شِقفَها (قِطعَها) واحْمِلها معكَ لِصـاحبِ أوقـافِ الأواني، فجمَعَها وذهب الرجلُ معهُ إليهِ، فـأراهُ إيّاها، فدفَعَ له ما اشْترى به مثلَ ذلك الصحنِ!".

ويُلاحظ ابنُ بطُّوطة، وقد قضى أكثر شـهرِ رمضانَ لعامّ 726 هـ فـي دمشـقَ أنَّ أهْلـها لايُفطِرُ أحدٌ منهُمْ في ليالي هذا الشـهرِ الكريـمِ

وحْدَه، فهُمْ يجتمعونَ كُلَّ ليلةٍ في دارِ أحدهــم، أو في مسجدٍ، ويأتي كُلٌّ منهم بما عنده من طعـــامٍ، فيُفطرون جميعاً.

وعندما استهلَّ شهرُ شوّالٍ من هــذا العــامِ خرَجَ ركْبُ الحُجّاجِ الشاميينَ من دِمشْقَ، وأخــذ يتأهَّبُ للتجمُّعِ والسَّفرِ في قريةِ **الكُسوةِ فــانضمَّ ابنُ بطُّوطة إلى ركْبِ حُجَّاج الشامِ**، وكانَ أمــيرُ الركب لذلك العام أحدَ كبــارِ الأمــراء، وكــانَ الرحّالةُ المغربيٌّ شديدَ اللهفةِ إلى الرحيــلِ إلــى الأراضي المُقدَّسةِ، لِقضاء الفريضةِ التــي مــن أجْلِها غادَر مسْقط رأسِهِ طنْجة قبلَ أكــثر مــن عامٍ.

المرحلة الرابعة

ابن بطُّوطة في الحجازِ والديارِ المقدسةِ

توقَّفَ ركْبُ حُجّاجِ الشامِ في مدينةِ **بُصْــرى** مدَّة أربعة أيامٍ، ليلْحقَ بِهِ من تخلَّفَ منــــهم فـــي دمشقَ لقضاء مآربِــــهِ، وانتـــهزَ ابــنُ بطُّوطـــة الفُرْصةَ فشاهدَ ما في تلك المدينــــةِ مـــن آثـــارٍ، وأهمُّها المسجدُ العظيمُ الذي شُيِّدَ عندَ مَبْركِ ناقــةِ النبيِّ العربيِّ حينَ وفدَ إلى بُصْرى قبلَ بعثتِـــــهِ، في تجارةِ خديجةَ، ثُمَّ استأنفَ الركْبُ سيْره حتــى بلغَ (تبُوك) وكانتْ من المحطّاتِ الهامَّـــةِ علـــى

طريقِ القوافِـــلِ إلـــى الحِجـــازِ، يـــتزوّدُ منـــها المُسافِرون بالمياهِ، استعداداً لاجتياز ما بعدَها من الصَّحْراءِ. وهي صَحْراء مُوحِشةٌ، يقـــالُ فيـــها: داخِلُها مفْقودٌ، والخارجُ منها مولودٌ! وقـــد تـــابعَ الرَّكبُ طريقهُ حتى وصَلَ إلى **المدينةِ المنـــوَّرةِ**، ودخَلَ الحُجَّاجُ **الحرَمَ النبويَّ الشريفَ**، وانتـــهوا إلى المسجدِ الكريمِ، ووقّفُوا ببابِ السَّلامِ مُسْلمينَ، وصلّوا بالروضةِ بينَ القبْرِ والمِنْبرِ، وأحسَّ ابـــنُ بطُّوطةَ أن رُوحهُ تسيلُ خُشوعاً في ذلكَ المكـــانِ القدُسيِّ، وحَمِدَ الله الذي قيَّض لهُ زيـــارةَ قـــبرِ النبيِّ الأمين، وفاضَ قلبُهُ بالسُّرور لنيلِـــهِ تلـــك المِنَّةَ الكُبْرى والنِّعمةَ العُظْمى.

أقامَ ابنُ بطُّوطة ورفاقُهُ في المدينةِ أربعــــةَ أيامٍ، وكانوا يبيتونَ الليلَ في المسجدِ، حيثُ أوْقَـدَ الناسُ الشمْعَ الكثير في صحْنِهِ، وأخذوا يُرّتِلــونَ القُرآن ويذكرون الله، وانصرفَ بعضُـــهُمْ إلـــى الترنُّمِ بالأناشيدِ في مدحِ الرّسولِ. وكـــانَ زُوّارُ المسجدِ النبـــويِّ يجُـودون بالصَّدقــاتِ علـــى المُجاورينَ والمُحتاجين، وسط تلـــكَ المظـــاهرِ الدينيةِ الرائعةِ.

وغادرَ الركبُ مدينَة الرسولِ قاصِداً **مكَّـــة المُكرَّمةَ**، فلمّا بلغَ وادي العَقيقِ لبِـــسَ الحُجّـــاجُ ثيابَ الإحْرامِ، وتابعوا الطريقَ يقْطعونَ المراحلَ حتى وصلوا مع الصباحِ إلـــى البلــدِ الأميــن،

وأسرعوا ليدْخلوا البيتَ الحَرام من بـــابِ بنـــي شيْبةَ، ويُشاهِدوا **الكعبةَ الشريفة**، ولنـــترْكِ ابـــنَ بطُّوطة يصِفُ تلكَ اللحظةَ السعيدةَ في حياتِـــهِ إذ يقولُ: "ودخلْنا البيتَ الحرامَ الذي منْ دخلَهُ كـــان آمِناً، مِنْ بابِ بني شيْبةَ وشاهَدْنا الكعبةِ الشـــريفة ــ زادَها الله تعظيماً ــ وهي كالعَروسِ تُجلـــى على مِنصَّةِ الجلالِ، وترْفُلُ في بُرودِ الجَمـــالِ، محْفوفةً بوفودِ الرحمـــنِ، مُوصِلـــةً إلـــى جنَّـــةِ الرضوانِ، وطُفْنا بها طوافَ القُـــدومِ، واســـتلمْنا الحجرَ الكريم، وصلَّيْنا ركعتيْنِ بِمقامِ إبراهيـــم، وتعلَّقْنا بأستار الكعْبةِ عنْدَ المُلتزمِ، بيـــنَ البـــابِ والحجرِ الأسْودِ، حيثُ يُستجابُ الدُّعاءُ، وشـــرِبْنا

من ماء زمْزمٍ.., ثُمَّ سعَيْنا بين الصَّفا والمــرْوةِ، ونزلْنا هُنالِكَ بِدارٍ بِمقْرُبةٍ مــن بــابِ إبراهيــمَ، والحمدُ لله الذي شرَّفنا بالوِفادةِ على هذا البيــتِ الكريمِ، ومتَّعَ أعيننا بِمشاهدةِ الكعبــةِ الشــريفةِ والمسجدِ العظيم".

ويُسهِبُ ابنُ بطُّوطةَ في **وصْفِ تِلْكَ الأماكنِ القُدسيّةِ: المسجدِ الحــرامِ والكعبــةِ المُعظمــةِ المُشرَّفةِ والحجرِ الأسودِ والمقام الكريمِ والحِجْرِ والمطافِ، وبئرِ زمزمٍ** المباركة، كما يُفيضُ فــي الحديثِ عن شعائرِ الحجِّ: "فإذا كانَ اليومُ الســابعُ من ذي الحِجّةِ خطبَ الخطيبُ إثْر صلاةِ الظُّــهْرِ خُطبةً بليغةً يُعلِّمُ الناسَ فيها مناسِكَهم، ويُعلِمُــهم

بيوم الوقْفةِ. فإذا كانَ اليومُ الثامنُ بكَّـــر النـــاسُ بالصُّعودِ إلى مِنًى، فإذا كانَ اليومُ التاسعُ رحَلــوا من مِنى بعدَ صلاةِ الصُّبْحِ إلى عرفَة، وعرفـــاتُ بسيطٌ من الأرْضِ فسيحٌ، تُحِدقُ بِهِ جِبالٌ كثــيرةٌ، وفي آخرِ بسيطٍ عرفاتِ جبــلُ الرحمـــةِ، وفيـــهِ الموقِفُ. وفي أسْفلِ هذا الجبلِ صهاريجُ وجِبــلبُ للماء، وبمقْرُبةٍ منهُ الموْضِعُ الذي يقِفُ فيه الإمامُ ويخطبُ.. وإذا حانَ وقْتُ النَّفْرِ أشارَ الإمامُ بيدِهِ، ونزلَ عن موقِفِهِ، فدفَعَ الناسُ بالنَّفْرِ دفْعةَ ترْتــجُّ لها الأرضُ وترجُفُ الجبالُ، فيا لهُ موقفاً كريماً، ومشْهداً عظيماً، ترجو النُّفوسُ حُسْنَ عُقباه!".

ويتحدّثُ ابنُ بطُّوطة عن قيامِهِ بِمناسِكِ حَجِّهِ فيقولُ:

"وكانَتْ وقْفتي الأولى يوم الخميسِ عامَ 726هـ، ولمَّا وقعَ النَّفرُ بعدَ غُروبِ الشمسِ وصلْنا مُزدَلِفة عنْدَ العِشاء الآخرة.. ولما صلَّيْنا الصُّبْحَ بمُزْدلِفةَ غدَوْنا منها إلى مِنى، بعد الوقوفِ والدُّعاء بالمَشْعَرِ الحرامِ، ومن مُزْدلِفةَ يستصحبُ أكثرُ الناسِ حصياتِ الجِمارِ، وذلك مُستحبٌّ، ولما انتهى الناسُ إلى مِنى بادَروا لِرَمي جَمرة العقبةِ، ثم نَحَروا وذبحوا، ثُمَّ حلَقوا وحلّوا من كُلِّ شيء إلا النساء والطِّيبَ، حتى يطوفوا طوافَ الإفاضةِ.."

ويُفصِّلُ ابنُ بطوطةَ الكلامَ على المناسِكِ تفْصيلَ عالمٍ فقيهٍ حريصٍ على تأديةِ المناسكِ على خيْرِ الوجوهِ، حتى ينتهي إلى وصْفِ **كُسْوةِ الكعبةِ**، وكانتْ كُسوتُها يومذاك تُرْسَلُ مِنْ مِصْر، فتُوضعُ في يومِ النَحْرِ على سَطْحِ الكعبةِ، وتُسبَلُ على جُدرانِ الكعبةِ في اليومِ الثالثِ بعدَ يومِ النَّحْرِ، وهي كُسْوة سوداء حالكةٌ من الحرير مُبطَّنةٌ بالكّتّانِ، وقد طُرِّزَ أعلاها وسائرُ جِهاتِها بآياتٍ من القُرآنِ الكريمِ، مكتوبةٍ بالبياضِ، وبعدَ إكساء الكعبةِ تُشمَّرُ أذيالُ الكُسْوةِ صيانةً لها من أيْدي النَّاسِ.

ولا يُغفلُ ابنُ بطُّوطةَ الحديثَ عن أهْلِ **مكـة وعاداتِهِمْ** ومكارمِ أخْلاقِهِمْ، وإكرامهم للغُرباء في ديارهِمْ، وهو لا يكتُمُ إعجابه بظرْفـهم ونظافـةِ ملابسهِمْ، فيقولُ: "**وأهلُ مكةُ لهم ظرفٌ ونظافـةٌ في الملابسِ**، وأكثرُ لِباسِهم البياضُ، فترى ثيابهم أبداً ناصِعةً ساطعةً، ويستعملون الطِّيب كثـيراً، ويكْتحِلونَ، ويُكْثرونَ السِّـواكَ بعيـدانِ الأراكِ الأخْضَرِ، ونِساءُ مكةَ فائقاتُ الحسنِ، بارِعـاتُ الجَمالِ، ذواتُ صلاحَ وعفافٍ، وهُـنَّ يُكْـثِرْنَ التطيُّبِ، حتى إنَّ إحداهُنَّ لتبيتُ طاويةً وتشـتري بقُوتِها طيباً". وقد لاحظ ابنُ بطُّوطة أنَّ أهلَ مكةَ يتمتَّعونَ بصحةٍ حسنةٍ ورشاقةِ جسمٍ، وعلَّل ذلـك

بأنَّهُمْ لايأكُلونَ في اليومِ إلا مـــرّةً واحِـــدة بعـــدَ العَصْرِ، ويقْتصِرون على هذهِ الوجْبةِ، ومن أراد الأكلَ في سائِرِ النهارِ أكلَ التَّمْرِ!

وبعدَ أنْ قضى ابنُ بطُّوطةَ مناسِكَ حجِّهِ، لم يُفكِّرْ في القُفولِ إلى وطنِهِ، إذْ كانَ الشوقُ إلـــى التَّجوالِ في الأرْضِ وارتيادِ البـــلادِ واكتشـــافِ المجْهولِ يعمُرُ قلبَهُ، ولهذا نجِدهُ ينضمُّ إلى ركبِ الحُجاجِ العائدين إلى العراق، ليبدأ مرحلةً جديـدة من مراحِلِ رحلتِهِ الطويلةِ.

المرحلة الخامسة

ابن بطُّوطة في العراق وفارس

كانَ رَكْبُ الحُجّاجِ العراقيين العائدُ إلى بلادِهِ ركْبـاً ضخْمـاً جامِعـاً، يضُـمُّ العِراقييـن والخُراسانيين والفارسيينَ والأعاجمَ، ولا يُحْصى عددُهم، "تموجُ بهم الأرضُ موْجـاً، ويسـيرون سيْرَ السَّحابِ المُتراكمِ، فمنْ خَرَجَ عن الركْـبِ لِحاجةٍ ولم تكُنْ له علامـةٌ يسـتدلُّ بـها علـى موضعهِ ضلَّ عنْهُ لِكثرةِ الناسِ" وكـان الرّكْـبُ مُزوَّداً بِكُلِّ ما يحتاجُ إليهِ المُسـافرون لِتوْفـير راحتِهم وسـلامتهم، "وهـم يسـيرون بـاللّيْلِ،

ويُوقِدون المشاعِلَ، فترى الأرضَ تتلألأُ أنــواراً، والليلَ قد عادَ نهاراً ساطِعاً". وقد ظـــلَّ الركـــبُ يَطوي مراحِلَ الطريقِ مُنذُ **خُروجِهِ من مكةَ** فـــي العشرين من ذي الحِجَّة عام 726 هـــــ مُـــروراً بالمدينةِ المُنوَّرةِ، حيثُ نَعِمَ ابنُ بطُّوطةَ **بزيـــارةٍ ثانيةٍ لِقبْرِ الرَّســـول** وروضتِـــهِ، قبـــلَ مُتابعـــةِ المسيرةِ إلى أرْضِ نجدٍ، ومازالَ الرَّكْبُ يقطـــعُ البوادي والقفارَ حتى وصل إلى **أرض النَّجـــفِ** ونزلَ في مدينةِ (مشْهدَ عليٍّ بن أبي طالبٍ) وقـــد وصَفَها ابنُ بطُّوطة بقولِهِ: "هي مدينةٌ حسنةٌ، في أرضٍ فسيحةٍ صُلْبةٍ، منْ أحْسنِ مـــدُنِ العِـــراقِ وأكثرِها ناساً، وأتقنِها بناء، ولها أسواقٌ حســـنةٌ

نظيفةٌ" وكانتْ عامِرة بالمدارِسِ والعُلماءِ، وقـــد انفصلَ ابنُ بطُّوطةَ عن الرَّكْبِ العِراقيِّ، وبقـــيَ معَ بعضِ رفاقِهِ، مُعوِّلاً على مُشاهدةِ تلكَ البِـــلادِ والسِّياحةِ فيها، وهو يصِفُ في رحلَتِـــهِ القْـبْرِ "يزْعمونَ أنَّهُ قبرُ عليٍّ عليه السلامُ" والحضـــرة التي فيها قبرُ الإمـــامِ، والتـــي يتقـاطرُ عليـــها الزُوّارُ، وعِنْدها مدرسةٌ عظيمةٌ يسكنُها الطلبـــةُ والصوفيَّةُ من الشِّيعةِ، "ولكُلِّ واردٍ عليها ضيافــةُ ثلاثةِ أيام من الخُبْزِ واللحْمِ والتَّمْرِ، مرَّتينِ فـــي اليومِ" وكان سُكّانُ هذه المدينةِ من غُلاةِ الشــيعةِ، ويُديرُ أمورَ المدينةِ نقيبُ الأشرافِ، كما يتولَّـــى تصريفَ شؤونِ أهلِها؛ وبعـــدَ أنْ قضـــى ابـــنُ

بطُّوطة حاجتهُ من زيارةِ القبرِ ووصفَ ما شاهدهُ هُناكَ من قناديلِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وطسُوتِ ماءِ الوردِ والمِسْكِ وأنواعِ الطيبِ، وهيَ من الذَّهبِ والفِضَّةِ أيْضاً، يغمِسُ الزائِرون أصابعهم فيها تبرُّكاً، سافرَ ابنُ بطُّوطة صُحْبَةَ رُفقةٍ كبيرةٍ مِنْ عَرَبِ خفاجةَ، وهم ــ كما يقولُ ــ "أهلُ تلكَ البِلادِ، ولهُمْ شوكةٌ عظيمةٌ وبأسٌ شديدٌ، ولا سبيلَ لِلسّفَرِ في تلك الأقْطارِ إلا في صُحبتِهِم" حتى بلغوا مدينةَ **(واسِط)**. وأهلُها كما يصفُهم "منْ خِيارِ أهلِ العراقِ، بل هُمْ خيرُهم على الإطْلاقِ، أكثرهم يحفظونَ القُرآنَ الكريمَ ويُجيدون تجويدَه بالقراءةِ الصحيحة، وإليهم يأتي

أهلُ بلادِ العراقِ لِتعلُّمِهِ، وبها مدرسةٌ عظيمةٌ حافِلَةٌ، فيها نحْوُ ثلاثمائة خلْوةٍ ينْزِلُها الغُرباء القادمون لِتعلُّمِ القُرآنِ".

ومن واسِطَ رحلَ ابنُ بطُّوطةَ إلى مدينةِ (البصرةِ) فلقِيَ من أعيانِها كُلَّ ترحيبٍ، وأقام في ضيافةِ بعضِ عُلمائِها، وصلَّى الجُمعةَ في جامعِها الكبير، وأصْغى إلى الخطيبِ الذي كان يلْحَنُ في خطبتِهِ لحْناً كثيراً، وعجِبَ من أمرِهِ، وأفضى بدهشتِهِ إلى بعضِ القُضاةِ في البصرةِ فقالَ له: "**إنَّ هذا البلد لم يبقَ بهِ منْ يعْرفُ شيئاً من علمِ النَّحْوِ!**" ويجدُ ابنُ بطُّوطة في ذلك موضِعاً للاعتِبارِ فيقول: "هذهِ عِبرةٌ لمَنْ تفكَّر

فيها، فسُبحانَ مُغيِّرِ الأشياءِ ومُقلِّبِ الأمور! هذه البصرةُ التي إلى أهلِها انتهتْ رياسةُ النَّحْوِ، وفيها أصلُهُ وفرعُهُ، ومِنْ أهلِها إمامُهُ الذي لايُنكرُ سبْقُهُ، لايُقيمُ خطيبُها خُطبةَ الجمعةِ على دُؤوبِهِ عليْها!"

ثُمَّ ركِبَ ابنُ بطُّوطةَ من ساحلِ البصرةِ قارِباً صغيراً نقلَهُ إلى **(الأبُلَةِ)** وقد قال فيها: "كانتِ الأبُلّةُ مدينةً عظيمةً يقصِدُها تُجَّارُ الهنْدِ وفارِسَ، فخربتْ، وهي الآن قريةٌ بِها آثارُ قصورٍ وغيرها دالةٌ على عِظَمِها". ومنها انتقلَ الرَّحالةُ بَحْراً إلى مدينةِ **(عبّادان)** فوصَفها بكثْرةِ المساجِدِ والربِّاطاتِ المأهولةِ بالصالحينَ والعُبَّادِ.

وتابعَ طريقهُ لِزيارةِ بلادِ اللورِ في بلادِ فـــارسَ، فراحَ يجتازُ تلك الجِبالَ الشامِخةَ حتى بلغَ مدينـــة (تُستَر) التي يُحيط بها النـــهرُ الأزرقُ بمياهِـــهِ الصافيةِ، فنزل في ضيافةِ أحدِ أئمتِها ستَّةَ عشـــرَ يوماً، وحضَرَ في بعضِها مجلسَ وعْظٍ لمُضيفِـــهِ فأدهشهُ وفضَّلَهُ على جميعِ من سبقَ لهُ الاستماعَ إلى وعظِهِمْ من الأئمةِ فـــي الحجـازِ والشـــامِ ومِصْرَ!

وظلَّ ابنُ بطُّوطةَ يتنقلُّ مـــن مدينـــةٍ إلـــى أُخْرى حتى بلَغَ مدينة (أصفهانَ)، وقـــد وصـــلَ إليها بُعيدَ العَصْرِ بعْدَ أن اجتـــازَ كثـيراً مـــن البساتين والمياهِ والقُرى الحسانِ العامرةِ بـــأبْراجِ

الحمامِ، وقد وجَدَ أصْفهانَ مدينة مُتهدِّمةً، لِتوالي الفِتن بين أهلِها، وهم طائفتانِ من أهلِ السُّنَّةِ والرّوافِضِ (غُلاةِ الشِّيعةِ)، وقد أعْجب الرّحَّالةُ المغربيُّ بكثرةِ الفواكِهِ في أصْفهان، كما استرعى انتباهه جمالُ أهلِها وشهامتهُمْ فقال: "وأهلُ أصفهان حِسانُ الصُّورِ، وألوانُهم بيضٌ زاهرة مَشُوبةٌ بالحُمْرةِ، والغالِبُ عليهم الشَّجاعةُ والنجْدةُ".

ثُمَّ زارَ ابن بطُّوطة مدينة (**شيرازَ**) فنالتْ عظيمَ إعجابِهِ وتقديرِهِ، **فراحَ يُقارِنُها بمدينةِ دمشق**، وقال فيها: "وليسَ في المشرقِ بلدة

تُداني مدينة دِمشقَ في حُسْنِ أسواقِها وبســـاتينها وأنهارها وحُسنِ صُوَرِ ساكنيها إلاّ شيراز".

وبعدَ زيارةِ شيرازَ غـــادرَ ابـــنُ بطُّوطـــة (عِراقَ العجَمِ) في طريقهِ إلـــى (الكُوفـــةِ) عـــن طريق (**كازرُون ومدينة الزَّيديـــنِ والحُويْـــزاء**) **والكوفةُ** ـــ كما يصفُها ـــ إحدى أمَّهاتِ البِـــلادِ العراقيَّةِ، وفيها مقابرُ الصحابَةِ والتابعينَ، ولكـــنَّ الخرابَ كان مُستولياً عليها عند وُصـــولِ ابـــنِ بطُّوطة إليها، لِكثرةِ غاراتِ البدْوِ عليها، وتـــهدُّمِ سُورِها، وقد رحَلَ منها إلى مدينة (الحِلّة) وأهلُها من طائفةِ الشيعة الإماميةِ الاثنى عشريّةِ، وقـــد شاهَدَ على مقربةٍ من سُوقِها الأعظمِ مسْجداً على

بابِهِ سِتْرُ حريرٍ مسدولٌ، وهم يســــمونهُ مشــهَدَ صاحبِ الزَّمانِ، ويعتقِدون أنَّ إمامهُم المُنتظـــر دخلَ هذا المسجِدَ وغابَ فيهِ، وأنَّهُ سيعودُ إليـــهم منه، ليقضي على الفسادِ والظُّلْمِ.

ومِنَ الكوفةِ اتَّجَهَ ابنُ بطُّوطةَ إلى **(بغْـــدادَ)** **ماراً بكَرْبلاء** التي استشهدَ الحُسينُ بنُ عليٍّ فيها، وقد زارَ **ابنُ بطوطةَ مشهدَ الحُسيْنِ** في روضـــةٍ على بابِها الحُجّابُ، وعلـــى الضّريـــح قنـــاديل الذهبِ والفِضَّةِ، وعلى البابِ أسْتارُ الحريرِ.

وكانت **(بغْدادُ)** عندَ وصولِ ابـــنِ بطوطـــة إليها **مدينةً "قد ذَهبَ رســـمُها، ولـــم يبْـــقَ إلا اسمُها"** ولقدْ طافَ الرحالةُ المغربيُّ في أرجائِـــها

وجوانبها، وتحدَّث عن مساجدِها ومدارسِها، وحمَّاماتِها وقُصورِها، وأكثرُها نهْبٌ بأيدي الخرابِ، كما تحدَّثَ عن قُبورِ الخُلفاءِ وبعضِ العُلَماءِ والصالحينَ فيها.

ومن عاصِمةِ العباسيّين رحَلَ ابنُ بطّوطة إلى **الموصلِ**، وزارَ في طريقهِ مدينة **(سُرَّ مَن رأى)** "وقد استوْلى الخرابُ عليها فلم يبْق منها إلا القليلُ"، ومدينة **(تكْريت)** "وهي مدينةٌ كبيرةٌ فسيحةُ الأرجاءِ". أما الموصِلُ فقد شهدَ الرحالةُ عليها أسواراً منيعةً فوصفَها بقولهِ: "وعلى البلَدِ سُورانِ اثنانِ وثيقانِ، أبْراجُها كثيرةٌ متقاربةٌ.. ولم أرَ في أسْوارِ البلادِ مِثْلها" وأثْنى ابنُ بطّوطة

على أهْلِ الموصِلِ ومكارِمِ أخلاقِهِمْ، وإحْسانِهِمْ إلى الغُرباءِ وإكرامِهِم إيّاهُمْ.

وطافَ رحالتُنا بعدَ ذلِكَ في مُدُنِ (**نصيبين**) و(**سِنجار**) و(**ماردين**) ووصفَ هذه الأخيرةَ بأنَها من أحسنِ مُدُنِ الإسْلامِ وأبدعِها وأتْقنِها وأحسنِها أسْواقاً".

ثُمَّ عادَ ابنُ بطُّوطة إلى بغدادَ، لينضمَّ إلى ركْبِ حُجّاجِ العِراقِ، إذْ كانَ عازِماً على قضاءِ الفريضةِ للمرّةِ الثانية، وكان سُلْطانُ العِراقِ "أبو سعيد" أوعَزَ إلى أعْوانِهِ بتقديمِ العونِ للرحالةِ المغربيِّ، في سفرِهِ إلى الحِجازِ، فلقِي من عنايةِ أميرِ الرَّكْبِ مايُرضيهِ، وكانَ ابنُ بطُّوطةَ عندَ

خُروجِ الرَّكْبِ من الكُوفةِ مُتعباً مريضـــــاً، وقـــد أصابهُ إسهالٌ عانى منه كثيراً في أثناءِ الرِّحلـــةِ، وأميرُ الرَّكْبِ العَراقيِّ يتفقَّدُهُ ويُوصـي به، ولـــــم يزَلْ مريضاً حتى وصلَ إلى مكةَ المُكرَّمةِ.

المرحلة السادسة

ابن بطُّوطة في الجزيرة العربيةِ

قضى ابنُ بطُّوطةَ مناسِكَ حجَّتِهِ الثانيةِ عامَ 727 هـ وهو مريضٌ، فلما انقضى الموسِمُ أقامَ مُجاوراً بمكَّةَ تلك السنة، حتى عُوفي من مرضِهِ، وتفرَّغَ لِلطوّافِ في البيتِ والعبادةِ والاعْتِمارِ، طوالَ تلك السنةِ، ثُمَّ حجَّ للمرةِ الثالثةِ عام 728 هـ وظلَّ بعدَها مُجاوراً بمكَّة، حتى قضى مناسكَ حِجَّتِهِ الرابعةِ عام 729 هـ، وتابع جواره لِلحرمِ عامَ 730 هـ وفي موسِمِ هذا العامِ وقعتِ الفتنةُ بين أمير مكة وجُنْدِ الملكِ الناصِر

في الحرمِ، فغادرَ ابنُ بطُّوطة مكّة قاصِداً بـــلادَ اليمنِ عن طريق جدَّة، ومنها رَكِبَ البحـرَ، لأوَّلِ مرةٍ في حياتِهِ، وكانتِ الريحُ في اليومين الأوَّليْنِ طيّبةً رُخاء، ثم تغـــيرتْ، فـأصبحت عاصفـةً هوْجاء، وكادتْ سفينةُ ابنِ بطَّوطة تضيـعُ بيـن تلاطُمِ الأمْواجِ، إلا أنّها حطَّتْ بعدَ أهْـوالٍ فـي مَرْسى يعرفُ برأسِ دوائِر، ويقعُ بينَ (**عيْـذاب**) و (**سواكنْ**) على ساحل بحرِ القُلْـزُم (**الأحمـر**) واكترى ابنُ بطُّوطة مع رفاقِهِ جِمالاً من سُـكّانِ تلك الناحيةِ، وهم البُجاة، "سودُ الألوانِ، لباسُـهم الملاحِفُ الصُّفْـرُ، ويشُـدُّونَ علـى رُؤوسـهمِ عصائب حُمراً" إلى أن وصلوا إلـى (**سـواكن**)

ومنها ركِبوا البحرَ إلى اليمن، وبعدَ ستةِ أيامٍ نزلوا في مدينة (**حلي**) حيثُ لقيَ ابنُ بطّوطة أميرها، فاحْتفى بهِ، وكانا قد تعارفا في موْسِمِ الحجِّ السابِق، وأقام الرحالةُ المغربيُّ في ضيافتِهِ أياماً، ثم رَكِبَ البحرَ في مرْكبٍ له في طريقهِ إلى مدينةِ (زُبيد) "وبينها وبين صنْعاء أربعونَ فرسخاً، وليسَ باليمن بعد صنعاء أكبرُ منها ولا أغنى من أهلِها" كما يقولُ، وهو يصِفُ أهلها بلطافَةِ الشمائلِ وحُسْنِ الأخْلاقِ وجمالِ الصُوَّرِ، ويُشيرُ إلى جمالِ نسائِها وحُسنهنَّ الفائِق، ويُثني عليهنَّ أطيبَ الثناءِ، وقد نزلَ ابن بطّوطةَ في زُبيد بضيافةِ فُقهائِها، فأكْرموهُ وأرَوْهُ بساتينهم

وحدائقِهِم. ثم سافرَ منـــها إلـــى مدينـــةِ (تعِـــزّ) عاصمةِ ملك اليمنِ، "وهِيَ ، كما يقـــولُ ـــ مـــن أحسن مُدُنِ اليمنِ وأعْظمِها، وأهلُها ذوُو تجـــبُّرٍ وتكبُّرٍ وفظاظةٍ"، وقد نزلَ فيها بضِيافةِ قـــاضي قُضاتِها وأقامَ عنده ثلاثة أيّامٍ، وفي اليومِ الرابـــعِ قدَّمهُ إلى السُّلْطان فسألهُ عن بـــلادِهِ والمواطِـــنِ التي زارها، ثُمَّ أمرَ بإكرامِهِ واستِضافتِهِ، فأقـــام في ضيافةِ سُلْطانِ اليمنِ أياماً، ثُمَّ ســـــافر إلـــى **(صنْعاء)** وقد استرعى نظرَهُ فيها نُزول الأمْطارِ بها صيفاً، كما لاحظ أنَّ "مدينة صنْعاء مفروشـــةٌ (مُبلَّطةٌ) كلُّها، فإذا نزل المطـــرُ غســـلَ جميـــعَ أزقتِها وأنقاها"، وانتقل من صنعاء إلـــى **عـــدنٍ**،

ميناء اليمنِ الأكـــبرِ، وفيـــهِ ترْســـو المراكـــبُ العظيمةُ، ونزلَ ابنُ بطُّوطة في عدْنٍ في ضيافـــةِ أحدِ تُجّارِها، وأشارَ إلى ثراءِ التُجَّارِ فـــي هـــذهِ المدينةِ، وتفاخُرهمْ بكـــثرةِ أمْوالـــهِم ومُباهاتِـــهم بذلك. ثم عبَرَ ابنُ بطُّوطة البحرَ من عدَنٍ إلـــى مدينةِ (زيْلع) ــ في الصُّومالِ ــ وأهلُـــها ســـودُ الأُلْوانِ، وقد وجدَها "أقذرَ مدينةٍ في المعْمورِ" ثُـــمَّ رحلَ عنها بِطريقِ البحْرِ إلى (مَقْدَشو) فوصـــلَ إليها بعد خمسةَ عشر يوماً، ونزلَ فـــي ضيافـــةِ عُلمائِها، واصطحبَهُ قاضيها إلى لقاءِ سُـــلطانِها المُلقِّبِ بـــ (الشيخ) فأمرَ بإنْزالِهِ بـــدارِ الطّلبـــةِ، المُعدّةِ لضيافتِهمْ، وهي بمقرُبَة من دارِ الشَّـــيْخِ،

وحُمِلَ إليهِ الطعامُ منها، وأقبل معهُ أحدُ الـوزراء زيادة في الترحيبِ به، وقد لاحظ إفراطِ النــاسِ هُناكَ في الأكْلِ وضخامة أجسامهم، ويوم الجمعةِ صحِبَ القاضي إلى الصلاةِ، وكـــان السُــلْطانُ هناك في المسجدِ، فسلَّمَ ابـــنُ بطُّوطـــةَ عليـــهِ، ورحَّبَ السُلْطانُ بهِ وخاطبـــهُ بالعربيـــة قـــائلاً: "قدِمتَ خير مقْدمٍ وشرَّفْتَ بلادَنا وآنستْنا".

ثم رحَلَ ابنُ بطُّوطةَ من أرْضِ الصُّومـــالِ عائِداً إلى جنوبِ بلادِ العربِ مرة أُخْــرى، وزارَ مدينةَ (ظفارِ) وهي آخِرُ بلادِ اليمنِ على ســاحلِ البحرِ الهِنْديِّ، وبينها وبين (عــدن) فـــي الـــبرِّ مسيرةُ شهْرٍ في صحْراء، وسُكّانها أهلُ تواضُــعٍ

وأخلاقٍ حميدةٍ وإيثارٍ للغرباءِ وأكثرُ أهلِها يسيرون مكْشوفي الرُّؤوسِ، وهُمْ يُشبِهونَ أهل المغربِ في أمورٍ كثيرةٍ، وهذا التشابُه يُقوّي القولَ بأنَّ صنْهاجةَ وسِواهُمْ من قبائِلِ المغربِ أصلُهم من حِمْيرٍ.

ثم رحلَ ابنُ بطُّوطة إلى مدينةِ **(الأحْقافِ)** على مسيرةِ نصفِ يومٍ من ظفارِ، وفيها بساتينُ الموْزِ وأشجارُ النَّارجيلِ المعروفِ بجوزِ الهِنْدِ، ثم تابَعَ ابنُ بطُّوطةَ رِحلَتِهِ حتى وصَلَ إلى بلادِ **عُمَانَ**، وأهلُها إباضيَّةُ المذْهَب (فرقةٌ من الخوارِجِ) ولهم نجْدة وشجاعةٌ، والحربُ قائمةٌ فيما بينهُمْ أبداً، وقد لاحظَ ابنُ بطُّوطةِ أن من

عادةِ الناسِ في (نَزْوا) **قاعدةِ عُمان** أن يأكُلوا في صُحونِ المساجِدِ، "فيأتي كُلُّ إنْسانٍ بِمـــا عنــدهُ، ويجتمعونَ لِلأكْلِ في صحْنِ المســـجِدِ، ويـــأكلُ معهُمْ الواردُ والصادرُ!".

ثُمَّ سافرَ ابنُ بطُّوطةَ إلى بلادِ هُرْمُزَ، علــى الساحلِ الفارسيِّ، وتنقَّلَ هُناكَ حتّى وصلَ إلـــى مدينةِ (سيراف) وأهْلُها من أشـــرافِ الفُــرْسِ، وفيها طائفةٌ من عربِ بني سيافٍ، ومِنْهمْ أكـــثرُ الغوّاصين على اللؤلوِ، ومغاصُهُم بينَ ســـيرافَ والبحرين.

واجتازَ ابنُ بطُّوطةَ البحْرَ إلـــى البحريـــنِ، وانتقلَ منها إلى مدينةِ (القطيفِ) وأهلُها من غُلاةِ

الشِّيعةِ، ومنها إلى مدينة هجَر (وكانت **تُسمّى الحسا** عند وصولِ ابنِ بطُّوطة إليْها) وأهلُها عربٌ، وانتقلَ منها إلى (اليمامةِ) وأكثرُ ساكنيها من بني حنيفةَ، وفي صحبةِ أميرهم سافرَ ابنُ بطُّوطةَ إلى مكّةَ لِقضاءِ **فريضةِ الحجِّ للمرةِ الخامسةِ** عامَ 732 هـ.

وبعدَ انتهاءِ موْسِمِ الحجِّ سافرَ ابنُ بطُّوطةٍ إلى جُدَّة ومنها إلى (عيْذابَ) على ساحلِ البحرِ الأحْمرِ، وحثَّ خُطا سفرهِ في صعيدِ مِصْرَ، **وغادر الديارَ المصْريّةَ إلى الشامِ** عن طريق بُلْبيْس، واجتاز الطريقَ مروراً بأمَّهاتِ المُدُنِ الشاميَّةِ حتى وصلَ إلى **اللاذقيّةِ**، ومن مينائِها

ركبَ البحر مُتّجِهاً إلى "برِّ التُركيَّـــةِ المعــروفِ بِبِلادِ الرُّومِ" ليبدأ مرحلةَ جديـــدة مـــن مراحِـــلِ رحلتِهِ الطويلةِ.

المرحلة السابعة

ابن بطُّوطة في بلادِ الروم وما جاورها

كان العثمانيونَ منذُ نِصْفِ قرن قبلَ وُصولِ ابنِ بطُّوطة إلى بلادِهم جادّين في بِناء دوْلتِهم على أنْقاضِ الدولةِ السلجوقيَّةِ الرُّوميةِ، وهم أتْراك استوْلوا على جانِبٍ كبيرٍ من بلادِ الرُّومِ، وجعلوا مدينةَ (قُونية) عاصِمةً لهم، فخلفَهُمْ العثْمانيونَ الذين كانَ القدرُ قد أعَدَّهُمْ لِنشرِ الإسْلامِ والانطِلاقِ بفُتوحاتِهِ إلى القُسطنطينيةِ وما وراءها.

نزلَ ابنُ بطُّوطة بعدَ إبْحارِهِ من اللاذقيّةِ في ميناءِ (العلايا) على الساحِلِ الجنوبيِّ لآسيةَ الصُغْرى، وبدأ **طوافهُ بِبلادِ الأناضولِ**، مُلاقياً من أهاليها التُرْكمانِ كُلَّ حفاوةٍ وإكْرامٍ، وقد لاحظَ أن نساءهم لايحْتجبنَ، وقد كُنَّ يهْرعْنَ إلى توديعِ الرّحالةِ المغْربيِّ وصحْبِهِ، باكيات لِرحيلهمْ مُتأسِّفات، وكأنَّ المسافرين من أهلِهنَّ وأقاربهنَّ. كما لاحظَ ابنُ بطُّوطةَ انتشارَ جماعاتِ الفِتْيانِ **(ويُسمُّونها الأخيّات)** في سائرِ مدُنِ الأناضولِ التركيةِ وقُراه، وكانتْ تضُمُّ الشُبَّان غيرَ المُتزوجينَ من أبْناءِ المدينةِ أو القرْيةِ الواحِدة، فيُقدِّمونَ رئيساً، ويتعاونونَ جميعاً على البرِّ

والتقوى وإكرامِ الغُرباء والإحْسانِ إليهم، وقد لقيَ ابنُ بطُّوطة من رعايةِ هذه المُنظّماتِ ما يفيضُ في وصْفِهِ خِلال رحْلَتِه في تلك البلادِ، فقد كانَ الفِتْيانُ يتسابقونَ إلى استِضافةِ الرحَّالةِ المغربيِّ المُسْلِمِ ويتنافسونَ في إكرامِهِ وصحبِهِ أشدَّ الإكْرامِ، وقدْ أثنى عليهم أعظمَ الثناء وقال: "لله درّهُم من طائفة! ما أكرم نفوسهم وأشدَّ إيثارهم، وأعظمَ شفقتهم على الغريبِ، وألطفَهُمْ بالواردِ، وأحبَّهُمْ فيه، وأجملهُمْ احتِفالاً بأمرِهِ، فليسَ قُدوم الإنْسانِ الغريبِ عليهِمْ إلا كقُدومِهِ على أحبِّ أهلِهِ إليْهِ!"

وآخِرُ المُدُنِ التي زارها ابنُ بطُّوطــة **فــي الأناضُولِ** كانتْ مدينة **(صنُــوب) علــى البَحْــرِ الأسْودِ**، وهي مدينةٌ مُحصَّنَةٌ يُحيطُ بها البحرُ من جميعِ جِهاتِها إلا جِهةَ الشــرقِ، ويــرْوي ابــنُ بطُّوطة حادثةً طريفةً جرَتْ لهُ عِنْدما صلّى مــع أصْحابِهِ مُسْبلي الأيْدي، على مذْهبِ الإمامِ مالكٍ، وكانَ أهلُ صنُوب أحْنافاً فظنُّوا ابــنَ بطُّوطــةَ ورفاقَه من الرّوافِضِ، ولكِنَّهُمْ عندما أكلوا لحــم الأرنبِ تبيّنَ أنَّهُمْ ليسوا منهم، وقد أقامَ الرَّحالــةُ المغربيُّ أربعين يوماً في هذهِ المدينةِ، في انتِظارِ سفينةٍ تُقِلُّهُ إلى **شِبْهِ جزيرة القرْمِ**، ثــم اكْتــرى مرْكباً للرُّومِ سافرَ عليهِ، وقد لقِيَ الأهْوالَ فــي

رِحْلَتِهِ البحريةِ تلك حتـــى نـــزلَ ببـــلادِ تابعـــةٍ لِلمَغولِ، وكانَ هؤلاء المغُول بعدَ غزْوِهِمْ لِلعـــالمِ الإسْلاميِّ والكوارث التي أنْزلوها بهِ، قد اعْتَنقوا الإسْلامَ، وأصبَحوا من غُلاةِ المُتحمِّســـينَ لـــه، وراحَ ابنُ بطُّوطة يتنقَّلُ في **بلادِ المَغُولِ** علـــى عربةٍ يجُرُّها فرسانِ أو تجُرُّها الجِمالُ، وكـــانتِ الطرقُ آمنةَ المسالِكِ، إذْ كانَ المغُولُ يتشـــدَّدونَ في "مُلاحقةِ السُرَّاقِ واللُّصوصِ، وقـــد حظـــى الرَّحالةُ الكبيرُ بِمُقابلةِ خانِ المغولِ (سُـــلطانِهِمْ) محمد أوزْبكْ، ووصفهُ بقولِهِ: هذا السُّلْطانُ عظيمُ المملكةِ، شديدُ القُوَّةِ، كبيرُ الشأنِ، رفيعُ المكـــانِ، قاهرٌ لأعْداء الله أهلِ قُسطنطينية العُظمى، مُجتهدٌ

في جهادهم، وبلادُه مُتَّسِعةٌ، ومُدُنه عظيمةٌ: منـها الكَفا والقرِمِ والماجِرُ وأزاق وسُوداقُ وخُـوارزْم، وحضرتُه (عاصِمتُه) السَّرا، وهو أحدُ الملـــوكِ السبعةِ الذين هم كُبَراءِ الدنيا وعُظماؤها" وهـــم: سُلْطانُ المغــربِ، وسُــلْطانُ مِصْــرَ والشــامِ، وسُلْطانُ العِراقِ، والسُّلْطانُ أوزبك خانُ المغُولِ، وسُلْطانُ بلادِ تُرْكستان وما وَراء النهرِ، وسُلْطانُ الهِنْدِ، وسُلْطانُ الصِّينِ.

وشهدَ ابنُ بطُّوطةَ احتفالات السُّلْطانِ بيـــومِ العيدِ ووصفَ موْكبَهُ ومواكبَ نِسائهِ الأمـــيراتِ (الخواتينِ والمُفْردُ خاتون) وبعدَ انقضاءِ العيـــدِ راحَ يتنقَّلُ معَ ركْبِ السُّلْطانِ حتى وصَلوا إلـــى

مدينةِ (الحاج تَرْخان) ـ وتُسمى استراخان ـ وكانتْ إحدى زوجاتِ الخانِ، وهي الخاتُونُ بيلونُ، ابنةَ ملكِ الرومِ، وقد حظِيَ ابنُ بطُّوطة بلقائها وعطْفِها عليهِ، فسألتْ زوجَها أنْ يأذنَ لها بزيارةِ أبيها في القُسطنطينية، لِتضعَ حمْلَها عندهُ، وتعودَ إلى زوجها، فأذنَ لها، وانتهزَ ابنُ بطُّوطةَ الفُرْصَةَ السانِحةَ، فسأل الخانَ أن يأذن لهُ في التّوجُّهِ إلى القُسْطنطينية في صُحْبةِ الخاتُونِ، فتردَّدَ في الإذْنِ له، خوفاً عليهِ، ثُمَّ أذِنَ لهُ وزَوَّدهُ بالمالِ والهدايا والأفْراسِ الكثيرةِ، وهكذا أتيحَ لِلرحّالةِ الإسْلاميِّ أن يزورَ **القُسطنطينيةَ العُظمى**، وأن يستقبلَهُ ملكُ الرومِ

في قصْرِهِ، ويأمُرَ بإكْرامِهِ، ويُيسِّر لَهُ الطَّواف في العاصِمةِ العظيمةِ ومشاهدةَ عجائبِها وغرائبِها، **ووصفِ ابنُ بطُّوطة المدينةَ** فقالَ إنَّها "مُتناهيةٌ في الكِبرِ، ومُنْقسِمةٌ إلى قِسْمين، بينهما نهرٌ عظيم المدِّ والجزْرِ.. وأحدُ القِسميْنِ يُسمّى **اصْطنْبول**، وفيه سُكْنى السُّلْطانِ وأربابِ دولتِهِ وسائرِ الناسِ، **والكنيسةُ العظمى (أيا صُوفيا)** في وسطِ هذا القسمِ من المدينةِ، وأما القسمُ الثاني من المدينةِ فيُسمّى الغلطة، وهذا القسمُ خاصٌّ بِنصارى الإفرنج يسكنونَهُ" وقد أطالَ ابنُ بطُّوطةَ في وصفِ أسواق القسطنطينية وشوارعها وكنيستِها العُظْمى وكانَ كُلُّ من يلْقاهُ

يسألهُ عن بيْتِ المقْدِسِ والمُقدَّساتِ المسيحية فيها، وبعدَ خمسةِ أسابيع من الإقامةِ في القُسطنطينية رجَعَ الركبُ المُرافق للخاتونِ إلى بلادِهِ، ورجَعَ معهُ ابنُ بطُّوطة، مُزوَّداً بِهدايا الخاتون الكثيرة، وقد آثرتِ البقاء في ديارِ أبيها؛ وبعدَ إقامةٍ قصيرةٍ في (السَّرا) عاصمةِ الخانِ، عزمَ ابنُ بطُّوطة على السَّفَرِ إلى **خُوارَزْم** وركِبَ إليْها العرباتِ التي تجرُّها الجِمالُ، في بريةٍ مُقفِرةٍ قطعَها في ثلاثين يوماً من السَّيْرِ الجادِّ حتى بلغَ مدينة خُوارزْمَ، ولقِيَ أميرها، وهو ابنُ خالةِ السُّلْطانِ محمد أوزبك خان، وقد وجَدها مدينةً كُبْرى وعدَّها "أكبر مُدُنِ الأتْراكِ وأعْظمَها

وأجملَها وأضْخمَها" ووصفَ عمارتَـــها الكثـــيرة وازدحامَها بالسُكانِ، حتى إنَّهُ لم يكُـــنْ يســـتطيعُ التنقُّلَ في بعْضِ أسْواقِها، لكُثْرةِ الازدِحام. ومـــن خُوارزم رحلَ ابنُ بطُّوطة إلى **بُخــــارى**، وزار قبر الإمامِ البُخاري، ثم لَقِيَ سُلطانَ ماوراء النهْرِ ــ نهْرِ جيحون ــ وأقام فـــي ضيافَتِـــهِ قُرابـــةَ الشهرين، وهو من أحفادِ جنكيز خان، وســــافرَ بعد ذلك إلى **سمَرْقنْد وترْمــــذَ، واجتـــازَ نـــهر جيحُون إلى بلادِ خُراسانَ**، فزارَ مدُنَ **بلْخٍ وهراةَ وطوسَ ونيْسابور وبِسطام** قبل أن يصِـــلَ إلـــى مدينتيْ **(غزْنة)** و **(كابُل)** وقد كانتا مـــن أعْظـــمِ المُدُنِ، ولكنهما عند زيارةِ ابنِ بطُّوطة لهما كانتا

خربَتيْنِ، ولم يبْق منــــهما إلا اليســـيرُ، ويســـكُنُ **(كابُل)** طائفةٌ من الأعْجامِ يُقالُ لهم الأفغانُ.

وفي بدايةِ عامِ 734 هـــ وصلَ ابنُ بطّوطـــة **إلى وادي البُنجابِ، وهو أولُ بـــــلادِ الســـلْطانِ محمد شاه ملكِ الهندِ والسندِ**، لِيُتـــــابِع مرحلـــةً جديدة من مراحِلِ رحلتِهِ الكبيرةِ فـــــي أقـــاصي المعْمورِ.

المرحلة الثامنةِ

ابن بطُّوطة في الهندِ وجزُرِ الهنْدِ الشرقيةِ والصينِ

كانتْ فُتوحاتُ محمود الغزْنوي قبلَ ثلاثةِ قُرونٍ في شمالي الهندِ قد وطَّدتْ الطريقَ لِتَمكُّنِ الإسْلامِ في تلك البِقاعِ، وغدا لِلمُسْلمين هناك إماراتٌ مُستقلةٌ، لم تلْبثْ أن توحّدتْ في ظلِّ حُكّامِ مدينةِ (دَهْلي) وأصبحتْ هذه المدينةُ عاصمةً لجميع البلادِ التي سكنها المُسلمونَ في شِمالِ الهِنْدِ، وإليْها كانَ يقصِدُ ابنُ بطوطةَ منذُ عُبورِهِ نهرَ البُنْجابِ، وعندما وصلَ إلى مدينةِ

(مُلْتان) سُئِلَ عن سبَبِ قُدومهِ، إذ كان لايســـمحْ لأحدٍ من خُراسان بدُخولِ الهِنْدِ إلا لمنْ يجـــيء للإقامةِ فيها، فأعلنَ أنَّهُ "**قدِمَ للإقامةِ في خِدْمـــةِ خوند عالم: أيْ سيِّد العالمِ**" والمُرادُ بذلك سُلْطانُ الهِنْدِ محمدُ شاه، وعندَما وصلَ إلى (**دهْلـــي**) ــ وبينها وبين مُلْتانِ مسيرةُ أربعين يوماً ــ لم يكُنْ السلطانُ في عاصمتِهِ، فـــأُدْخِلَ دارَ الضِّيافـــةِ، وبانتِظارِ عودةِ السلْطانِ تجوَّلَ ابنُ بطُّوطة فـــي دهْلي وشاهَدَ عِظمَ مِساحتِها وعُمْرانِها، وسُـورَها الذي لا نظيرَ لَهُ، وزار مسجدَها وهو من أعظـمِ الآثارِ الإسْلاميَّةِ فيها، وكانَ قبلَ ذلكَ معبداً وثنيـاً فحوَّلوهُ إلى مسجدٍ، واسترعى نظـــرهُ ارتفـاعُ

صوْمعةِ المسجِدِ (مِئْذنتُهُ) فصعِدها فرأى إشرافَها على مُعْظمِ دُورِ المدينةِ وأسْوارِها، وظــهرَ لــهُ الناسُ في أسْفلِها كأنَّهُم الصِّبْيانُ الصِّغارُ من شِدَّةِ ارتفاعِها.

وعِنْدما عادَ السلطانُ من ســفرِهِ اســتقبلتهُ (دهْلي) استقبالاً حافلاً، فزُينتِ الفيلــةُ ووُضِــعَ عليْها قِبابٌ من الخشبِ مكسوة بالحريرِ، وزُيِّنــتِ الشوارعُ التي يمرُّ فيها موكبُ السلْطانِ العــائدِ إلى قصرهِ، وعندَ مرورهِ فيها كان أتباعُهُ يرْمون من فوقِ الفيلةِ بالدّنانيرِ والدَّراهِمِ، فيتسابقُ الناسُ إلى التقاطِها. **وتــهيّأ ابــنُ بطُّوطــة لمقابلــةِ السُّلْطان**، وكانتِ التقــاليدُ أن القــادمين عليــهِ

يُقدِّمون بين أيديهم هديةً لـــه، فيكافئُـــهم عليـــها بِأضْعاف مُضاعفةٍ، وقد أصبحتْ هـــذه الهديـــةُ التقليديةُ موردَ رزقٍ للتُجّارِ ببلادِ السِّنْدِ والـــهنْدِ، إذ يقدِّمون للقـــادمين قُروضـــاً يُجَـــهِّزون بـــها هداياهُمْ، ثم يردُّونـــها مـــن المُكافـــآتِ الســـخيةِ السُلطانيّةِ إليهم، فيربحُ التجارُ أرباحاً وفيرة؛ وقد سلك ابنُ بطُّوطة مسلكهُمْ، **وأعدَّ هديةً مُناســـبةً للسُّلْطانِ من الجمال والخيْلِ والسُّيوفِ وبعـــضِ المماليكِ**، وحُدِّد لهُ اليومُ الرابـــعُ مـــن شـــوالٍ لِمُقابلتِهِ، وقد وصَفَ الرحالةُ العظيـــمُ اســـتقبال السلْطان محمد شاه لـــه فـــي قصـــرهِ الكبـــيرِ، وترحيبهُ به وقوله له بالفارسية "حلَّتْ البركـــةُ،

قدومُك مُباركٌ" وقد طلب منه أنْ يطمئـــن إلـــى الإقامة في الهنْدِ، ووعدَهُ بالعطاء الجزيل بقوْلـِـهِ: "أعْطيك من الإنعام ما يسمعُ بهِ أهلُ بلدِكَ فيأتونَ إليك" وكانَ السلطانُ مُحباً للغُرباء، حريصاً على الاستفادةِ من مواهِبهم وخبْراتـــهم فـــي خِدمـــة مملكتهِ، فلم يلبثْ أنْ عيَّن ابن بطُّوطـــة قاضيـــاً على دهْلي، وخصَّص له مُرتَّباً ســـنوياً كبـــيراً، وقال لهُ: "لاتحسبْ قضاء دهْلـــي مـــن أصغـــرِ الأشغالِ، فهو أكبرُ الأشـــغال عندَنـــا" فأجابـــهُ: "يامولانا أنا على مذهب مالكٍ، وهؤلاء حنفيَّـــةٌ، وأنا لا أعرفُ اللسان" فعيَّن له السلطانُ بعـــض

المُعاونين ليُشاوروهُ وينوبـوا عنـه، وزادَ فـي عطاياهُ له والإنعامِ عليهِ.

وهكذا اطمأنَّ ابنُ بطوطة إلى **الإقامةِ في الهندِ**، وهو يصِفُ في رحلتِهِ ما شاهدهُ هُناك من **عجائبِ العاداتِ والتقاليدِ**، ومن أطرفِ ما شاهَدَ هُناك **إحراقُ نساء الهُندوس أنفسهنَّ بعدَ وفاةِ أزواجهنَّ، ولندَع ابن بطّوطة يروي ذلك بنفسه:**

"رأيتُ الناسَ يُهرعون منْ عسكرنا، ومعهم بعضُ أصحابنا، فسألتهم: ما الخبرُ، فأخبروني أنَّ كافراً من الهُنودِ مات، وأُجِّجتِ النارُ لإحْراقِهِ، وامرأتُهُ تُحْرِقُ نفسها معهُ، ولمّا احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقتِ الميِّتَ حتى

احترقت معه! وبعدَ ذلك كنْتُ في تلك البلادِ أرى المرأة من الهُنودِ مُتزيِّنةً راكِبةً والناسُ يتْبعونها، والأطبالُ والأبواقُ بين يديها، ومعَها البراهِمةُ، وهمْ كُبراء الهُنودِ، وإذا كان ذلك ببلادِ السُّلْطانِ (السلطان المُسلمِ) استأذنوا السُّلْطان في إحراقِها، فيأذنُ لهم فيحرقُونها.."

ويرْوي ابنُ بطُّوطة مشاهداتِهِ لإحْراقِ ثلاثِ نِسوةٍ من الهُندوس أنفسهن، بعد هلاكِ أزواجَهنَّ في بعضِ المعارِك: "فاتفقْنَ على إحْراقِ أنفسِهنَّ، وإحراقُ المرأةِ بعدَ زوجِها عندَهم أمرٌ منْدوبٌ إليه (مُستحبٌّ) غيرُ واجب، لكنَّ من أحرقتْ نفسها بعد زوجِها أحرزَ أهلُ

بيتِها شرفاً بذلكَ، ونُسِبوا إلــى الوفــاء.. ولمَّــا تعاهدتِ النِسْوة الثلاثُ على إحْراقِ أنفُسِهِنَّ أقمْنَ قبلَ ذلكَ ثلاثة أيامٍ في غِنــاء وطــربٍ وأكــلٍ وشُرْب، كأنّهُنَّ يُودّعنَ الدُّنْيا، وتأتي إليْهنَّ النساء من كُلِّ جهةٍ.. وفي صبيحةِ اليومِ الرابعِ أتِيَــتْ كلُّ واحدةٍ منهُنَّ بفرَسٍ فركبتْهُ وهــي مُتزيِّنــةٌ مُتعطِّرةٌ.. والبراهمةُ يحُفُّــون بــها، وأقاربُــها معها.. وكُلُّ إنْسانٍ يقولُ لها: أبلغي السلام أبــي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقولُ: نعَــمْ، وتضْحك لَهُمْ. وركبتُ مع أصحابي لأرى كيفيــة صُنعِهنَّ في الاحتراق، فسِرْنا معهُنَّ نحو ثلاثــةِ أميالٍ، وانتهينا إلى موضعٍ مُظْلمٍ كثــير الميــاهِ

والأشجارِ، مُتكاثِفِ الظِلالِ، وبين أشجارِهِ أربعُ قبابٍ، في كُلِّ قُبةٍ صنمٌ من الحِجارة، وبين القِباب صهريجُ ماء قد تكاثفتْ عليهِ الظِلالُ..

ولمَّا وصلْنَ إلى تلك القبابِ نزلنَ إلى الصِّهريج، وانغمسْنَ فيه، وجرَّدْن ما عليهنَّ من ثياب وحُليٍّ فتصدَّقْن بهِ، وأتيتْ كلٌّ واحدةٍ منهن بِثوبِ قُطْنٍ خشِنٍ غيرِ مخيطٍ، فرُبط بعضهُ على وسطِها، وبعضُه على رأسِها وكتِفِها، والنيرانُ قد أضْرمتْ على قُرْبِ من ذلك الصِّهريج، في موْضِعٍ مُنخفِضٍ، وصُبَّ عليها زيتُ السِّمسم فزاد في اشتعالها، وهُنالك نحو خمسةَ عشر رجُلاً بأيديهم حُزمٌ من الحطبِ الرقيق، ومعهُم

نحو عشرة بأيديهم خشبٌ كِبارٌ، وأهلُ الأطبـالِ والأبواقِ وُقوفٌ ينظرون مجيء المـرأةِ، وقـد حُجبتِ النارُ بِملْحفةٍ يُمسكُها الرجالُ بأيديهم، لئلا يُدهِشُها النظرُ إليها لكيلا ترتعب مـن رُؤيتِـها) فرأيتُ إحداهُنَّ لمَّا وصلت إلـى تلـك الملحفـة نزعتها من أيدي الرِّجالِ بعنفٍ وقالتْ لهم وهـي تضحك:

ــ أبالنَّار تُخوفونّني، أنا أعلـمُ أنـها نـارٌ مُحرقةٌ! ثم جمعتْ يديها علـى رأسِـها خِدْمـةً (صلاةً) لِلنارِ، ورمَتْ بنفْسِها، وعِنْد ذلك ضُربَتْ الأطبالُ والأنفارُ والأبْواقُ، ورمى الرِّجـالُ مـا بأيديهم من الحطبِ عليها، لِئلا تتحرَّك، وارتفعتِ

الأصْواتُ، وكثُرَ الضجيجُ، **ولمّا رأيتُ ذلك كِدْتُ أسقُط عنْ فرسي**، لولا أصحابي الذين تداركَوني بالماء، فغسلوا وجهي، وانصرفتُ".

ومرَّت قُرابةُ تِسْع سنواتٍ على إقامةِ ابنِ بطُّوطة في الهِنْدِ، في خِدمةِ سُلْطانِها، **حتى ساءتِ العلاقاتُ بينهما يوماً، لزيارةِ ابن بطُّوطة للشيخِ شهابِ الدين، فلمَّا غضِبَ السُلْطان على الشيخ وقتلَهُ، همَّ بِعقابِ ابنِ بطُّوطة، وكان السُّلْطانُ مع كرمِهِ وحُبِّهِ للغُرباءِ شديدَ البطش والفتكِ والولوغِ في الدِّماءِ، فخاف ابنُ بطُّوطة على نفسِهِ**، وانقبَضَ عن الخدمَةِ السُّلطانيةِ، **وتصوَّفَ واعتكفَ** في بعضِ الزوايا، وراح

يُوالي العِبادةَ والصومَ وتصدَّقَ بأكثرِ ما كان يملِكُ، ولَبِسَ زيَّ الفُقراء (الصُّوفيةِ)، فلما عرفَ السلطانُ ما آل إليه أمرُهُ استدعاهُ، ولاطفهُ، وطلبَ منه الرجوع إلى الخدمةِ، فاعتذرَ وسألَهُ أن يأذنَ لهُ بالحجِّ، فأذِنَ لَهُ، وتابعَ ابن بطُّوطةَ اعتكافَهُ في أواخرِ جُمادى الثانية عام 742 هـ في بعضِ الزوايا مُدَّة أربعين يوماً، كان يقرأُ القُرآن خِلالها كُلّ يومٍ، ويتهجَّدُ ويتعبَّدُ ويكْتفي بالقليل من الطَّعامِ، ثم أرسلَ إليه السُلطان يستدعيهِ، وبعثَ إليه "خيْلاً مُسرَجةً، وجواري وغلْماناً وثياباً ونفقةً" فلما مَثُلَ بين يديْهِ زادَ في إكْرامِهِ وأعلمهُ بأنَّهُ اختارهُ لِما يعلمُ من حُبِّهِ

للأسْفارِ والترْحالِ، ليكونَ رَسولاً عنهُ إلى ملِكِ الصِّينِ، مع وفْدٍ من رجالِهِ يحْمِلونَ منهُ هديةً إلى (القانِ) ردّاً على هديةٍ كانَ بعثَ بِها إلى السُلْطانِ محمد شاه مَعَ وفدٍ صينيٍّ كبيرٍ، وكانتْ فُرصةً ذهبيةً ليزورَ ابنُ بطُّوطة بلاد الصينِ، فرحَّبَ بها، وتحرَّك ركْبُ السَّفرِ في 17 صفر 743 هـ من دهْلي، وقد انضمَّ إليه الوفدُ الصيني العائدُ إلى بلادِهِ.

إلا أن طريقَ ابنِ بطُّوطة إلى الصِّينِ تمتدُّ طويلاً، بعدَ تنقُّلٍ في شِبْهِ جزيرةِ الهنْدِ، وجُزُرِ ذيْبة المَهْلِ (المالْديف) وسِيلانَ وجاوه، قبلَ أن يُبْحرَ إلى الصينِ، وهو يصِفُ في رحْلَتِهِ حياةَ

السُكَّانِ في هذه الجزُرِ وصْفاً مُفصَّلاً فيه مـــادةٌ غزيرةٌ وطريفةٌ.

فأما جُزر ذيبةِ المَهْلِ (المالْديف حالياً) فـــهي إحْدى عجائب الدُّنيا، كما يقولُ، وهي نحوُ ألفـــيْ جزيرةٍ صغيرةٍ، وأهلُها كُلُّهم مسلمون، يعيشـــون في صَلاحٍ وتُقًى وهُدوء، والزواجُ من نســـائِهم سهْل ميسورٌ، وقد أقام ابنُ بطُّوطـــة فـــي هـــذهِ الجُزُرِ عاماً ونصفَ العامِ، وتزوَّجَ ابنـــةَ أحـــدِ الوُزراءِ فيها، وحملهُ الوزيرُ على تقلُّدِ منْصِـــبِ القضاءِ رغْبةً في الاستفادةِ من فِقْهـــهِ وعِلْمِـــهِ، فأتيحَ لهُ بذلِكَ أنْ ينهضَ بعددٍ من الإصْلاحـــاتِ الاجتماعيَّةِ في تلك الجُزُرِ.

ثمَّ رحلَ منها إلى جزيرةِ (سيلان) وصعِدَ فيها جبلَ (سرنديبَ) لِيرى موْطىء قدمِ أبي البشرِ آدمَ عنْد هُبوطِهِ من السّماءِ، فيما يقولُون، وقد استرْعى نظرهُ في هذهِ الجزيرةِ أمران: **كثرةُ القرودِ** فيها **وكثرة أحجارِ الياقوتِ** المُلوَّنِ، وقد شاهَدَ بنفسِهِ أحجاراً كبيرة من الياقوتِ، في حجْمِ الكفِّ، موْضوعةً في خزائنِ سُلْطانِها.

وأخيراً سافر ابنُ بطُّوطة إلى جزيرة جاوة، وعِندما رآها على مسيرةِ نصفِ يومٍ إليها من البحْرِ أعْجبتْهُ بخُضرتِها ونضْرتِها وكثرةِ شجرها، ثم نزل فيها واتَّجهِ إلى **عاصمةِ سُلطانِها (سومطْرة)** وهي مدينةٌ حسنةٌ عليها

سُورٌ وأبراجٌ من خشبٍ، وأقــــامَ فــــي ضيافــةِ السلْطانِ خمسةَ عشرَ يوماً، وبِعونٍ منه سافرَ ابنُ بطُّوطة إلى الصِّينِ في مركبٍ جهّزه لــــهُ وزوّدَهُ بكُلِّ ما يلْزمُ الرحّالة العظيم في إبحارِهِ إلى آخــرِ بلادِ العالمِ الإسْلاميِّ في الشرقِ.

كانتِ الصينُ في نظر المُسْلمين تُمثِّلُ أقصى الأرضِ المعْمورةِ، ولكن التجارَ المُسْلمين كــانوا يصِلونَ إلى موانِئِها، وفي القرنِ الهجريِّ الثــاني استنْجَدَ حاكمُ الصِّينِ بالخليفةِ المنصورِ العبَّاســيِّ للقضاءِ على بعضِ الثُوَّارِ فأمدَّهُ بفِرْقةٍ من الجُنْــدِ الإسْلامي، وقد آثر أفرادُها البقاء في الصِّين بعدَ انتهاء مُهمتِهم العسكريةِ، غير أن صِلةَ المُسْلمينَ

بالصينِ ازدادَتْ توثُّقاً قُبيْلَ زيارةِ ابنِ بطُّوطــــة لها، **ففي القرنِ السابِعِ الهجْريِّ دخــلَ المغــولَ تلك البِلادَ، وتحولّوا إلـــى الديــن الإسْــلامي، ففتَحوا الطريق بذلك للمُسْلمين للدُّخـــولِ إلـــى الصِّينِ**، وأصبحتْ جالياتٌ كثيرة منهم تقْطنُ فــي مُدُنِ الصِّينِ الهامَّةِ، وغدا لهم كيانُهم الخـــاصُّ، وقد وصَفَ ابنُ بطُوطة حيـــاةَ هـــذهِ الجاليـــات الإسْلاميةِ عندما زارَ الصّين وطافَ في بعـــضِ أنحائِها.

وجدَ ابنُ بطُّوطة "إقليم الصينِ مُتّسعاً، كثـيرَ الخيْراتِ والفواكِهَ والزَّرْعِ والذَّهَبِ والفِضَّـــةِ، لا يُضاهيه في ذلِكَ إقليمٌ من أقـــاليمِ الأرْضِ" كمـــا

وجدَ المَرْسى الذي رسَتْ فيهِ سفينتُهُ عند مدينةِ (الزَّيْتونِ) **"من أعظمِ مراسي الدُّنْيا، أو هو أعظمُها"** واتَّصلَ رحَّالتُنا بالمسلمينَ في هذهِ المدينَةِ فقدَّموهُ إلى سُلْطاتِها التي أكرمتْ وِفادتَهُ وأنزلتهُ في منزلٍ حسَنٍ، وكانَ فرحُ الجاليةِ الإسْلاميةِ في المدينةِ بهِ عظيماً، وكان التُجَّارُ المُسلمون هُناك "إذا قَدِمَ عليهم المسلمُ فرِحوا به أشدَ الفرَحِ، وقالوا: جاء مِنْ أرضِ الإسْلامِ، ولهُ يُعْطونَ زكوات أموالِهِمْ، فيعودُ غنياً كواحِدٍ منهم" ثُمَّ طافَ ابنُ بطُّوطة في الصين، **ورأى في كُلِّ مدينةٍ يزورُها حيّاً خاصَّاً بالمُسْلمين**، لهم فيهِ مساجدُهم ومرافِقُهم، وهم مُعظَّمون ومُحْترمُون.

وقد استرعى انتباهَهُ نفاسةُ **الفُخّارِ الصينيّ، وضخامةُ الدَّجاجِ في الصينِ، وكثرةُ الحرير** فيها حتى ليُبتاع الثوبُ الواحدُ من القُطْنِ بالأثوابِ الكثيرةِ من الحريرِ! كما أشار إلى استعمالِ أهلِ الصِّينِ للأوْراقِ النَّقْديَّةِ بدلاً من العُملةِ الفضيّةِ أو الذهبيَّةِ، فإذا تمزَّقتْ تلكَ الأوراقُ في يدِ أحدِهم حَملَها إلى دارِ السِكَّةِ فأخذ عِوَضاً عنها أوراقاً جُدُداً، ولا يدْفعُ على ذلك أجراً، لأنَّ الذين يتولَّون هذا العملَ لهم المُرتَّباتُ من قِبَلِ السُّلْطانِ.

على أنَّ أشدَّ ما أعجبَ ابنُ بطُّوطةَ في الصِّينِ **براعةُ أهلِها في التَّصْويرِ** "فلا يُجاريهم

أحدٌ في إحْكامِهِ من الرُّومِ ولا من سِواهُمْ، فـــإنَّ لـهُمْ فيهِ اقتِداراً عظيماً" وهُوَ يقولُ: "ومن عجيـبِ ما شاهدْتُ لهم من ذلك أني ما دخلتُ قط مدينـــةً من مُدُنِهِم ثم عُدتُ إليها **إلاّ ورأيـــتُ صُورتـــي وصُورَ أصحابي منقوشةً في الحيطانِ والكواغِـدِ** (الأوْراقِ)، موضوعةً في الأسواقِ".

وبعدَ وصُولِ ابنِ بطُّوطةَ إلى الصِّين بأيـــامٍ جاء أمرُ السُلْطانِ (القانِ) بإكْرامِهِ وإشْخاصِهِ إلى حضْرتِهِ، فجهَّزوا لهُ مركباً حسَناً مـــن مراكِـبِ الأُمراءِ، سارَ في النَّهْرِ أيّاماً حتى وصَـــلَ إلـــى (الخَنْسا) وهي كما يقُولُ "**أكبرُ مدينةٍ رأيتُها على وجهِ الأرْضِ.. وهي سِتُّ مُدُنٍ، على كُلِّ مدينـــةٍ**

سُورٌ، ويُحدِقُ بالجميعِ سُورٌ واحــدٌ" ثــم تــابعَ الرِّحلةَ إلى مدينة (خان بالِق) ـ وهــي بكيــنُ اليوم ـ عاصِمةُ القانِ، والقــانُ هــو سُــلطانُ الصينِ الأعْظمُ، الــذي مملكتُــه بــلادُ الصِّيــنِ والخِطا، وقدْ وجدَها رحَّالتُنا "من أعظــمِ مُــدُنِ الدُّنْيا" وقصْرُ القانِ فيها في وسطِ المدينةِ، وأكـثرُ عِمارتِهِ بالخشبِ المنْقوشِ، غير أنَّ القانَ كــان غائباً عن عاصِمتهِ عندَ وُصولِ ابــنِ بطُّوطــة إليْها، لأنَّهُ كان قد خَرجَ بجيْشِهِ لقِتالِ ابنِ عمِّــهِ فيْروزَ الثائِرِ عليهِ، وبعد أيامٍ من وُصــولِ ابــنِ بطُّوطةَ وردَ الخبرُ بمصْرعِهِ، فأُعلنَ الحِدادُ وعمَّ الحُزنُ، ونُصِحَ الرحَّالةُ بِمُغادرةِ إقليمِ الخِطا قبــلَ

أن تشتدَّ الفِتْنةُ، فعادَ بِمركبِهِ من الطريــق التـــي جاء فيها، إلى مدينةِ الزيتونِ، على عجلٍ، حيــثُ كانتْ سُفُنٌ فيها تهُمُّ بِمُغادرَتِها إلى الهِنْدِ، وفيـــها سفينةٌ لِسُلطانِ جاوة، ورُكَّابها مـــن المُسْــلمينَ، فرحَّبوا بابن بطُّوطةَ، وسافرَ معهُمْ، ولكنَّ السفينةَ تاهتْ في البِحارِ قبلَ أن تَصِلَ إلى **جـــاوة**، وقد رحَّب سُلطانُها بعودْةِ الرحَّالة العظيمِ إلى بــلادِهِ، فأقامَ في ضيافَتِهِ شهرين قبلَ أنْ يُودِّعَـــهُ عـــائداً إلى الهِنْدِ، وعندَ وُصولِهِ إلى **(كوْلمَ)** رحلَ منـــها إلى **(قالِقوط)** ومن مينائِها ركـــبَ البحـــرَ إلـــى الخليج العربيِّ، فوصلَ إلى **(ظفارِ)** في المُحـــرَّم عام 748هــ وتابعَ رِحلتَهُ فـــي **إقليـمِ هُرْمُـز**،

وكانتْ محسوبةً من بلادِ عُمان، حتى وصلَ إلـى شيرازَ، مُتابِعاً سفرَهُ في **مُدُنِ فـــارِس** قبـلَ أن يصِلَ إلى البصرةِ فبَغْدادَ التي وصلَ إليْها فـــي شوَّالٍ من ذلك العامِ، ثم تابعَ طريقَهُ على الفُراتِ إلى **رحْبةِ مالكِ بن طوقٍ**، ومنـــها ســافَرَ إلــى **تدْمرَ**، **فدِمشقَ**، **التي وصلَ إليها بعد مغيبهِ عَنْها عِشرين سنةً كاملةً** كما يقولُ .

المرحلة التاسعة

عودةِ ابن بطُّوطة إلى المغربِ والأندلُس

كانَ ابنُ بطُّوطةَ عام 749 هـ مايزالُ في ديارِ الشامِ عندما **وقعَ الوباء**، وسمعَ الرحَّالةُ بأخبارِهِ وهو في **حَلَبَ**، فغادَرها على نيَّةِ العودةِ إلى وطنِهِ، وعندما وصلَ إلى **دمشقَ** كانَ عددُ الموتى من الوَباءِ قد انتهى إلى 2400 في اليومِ الواحِدِ، وتابعَ سفرَهُ إلى **بيْتِ المقْدِسِ**، وكانَ الوباءُ قد ارتفعَ عنها وبوصُولِهِ إلى **غزَّة** التي بدأ الوباء منها، وجدَ ابنُ بطُّوطةَ المدينة خاليةً من

مُعْظَمِ أهلِها، لِكثرةِ مَنْ ماتَ منهم فـــي الوبـــاءِ (فكان 1100 من أهلِها يموتون في اليوم).

وتابَعَ ابنُ بطُّوطةَ طريقهُ إلى **الإسـكندريةِ فالقاهرةِ**، ليجِدَ جميعَ مَـن كـان يعْرِفُـهُ مـن مشايخِها قد ماتوا في الوباء!

وتابعَ الطريقَ إلى **الصَّعيدِ**، ومن (**عيْـذابَ**) ركبَ البحْرَ إلى **جُدَّةَ**، ومنها إلى **مكَّةَ المُكرَّمـة** فوصلَ إليها في 22 من شعبان عام 749 هـــ، وبقي فيها حتى الموسمِ فأدَّى فريضةَ الحجِّ قبـلَ أن يعودَ إلى **القاهِرةِ** من جديدٍ.

وهنا، وبعدَ رُبْعِ قرْنٍ من التَّجْوالِ الدائِـبِ والطَّوافِ في الأرْضِ، أحسَّ الرحَّالةُ البعيدُ الهمَّةِ

بالحنينِ إلى وطنِهِ ومسقَطِ رأسِهِ، وقد بلغَـــــهُ أنَّ السُّلْطانَ المَرينيِّ أبا عنانٍ في المغربِ الأقْصـــى قد فاضَ إحسانُه على الخاصِّ والعامِّ، فعزمَ على العودةِ إلى بلادِهِ، فركبَ البحرَ في صفرٍ من عام 750 هـــ إلى مدينةِ **تُونُس**، حيثُ نزلَ في ضيافةِ سُلْطانِها أبي الحسن من بني عبدِ الحقِّ أكثرَ مــن شهْرٍ، قبْلَ أن يُتابِعَ رحلتَهُ البحريةِ إلى **تِلِمســان**، ومنها سلَكَ طريقَ البرِّ عن طريق **(تـــازا)** إلـــى مدينةِ فاس، عاصمةِ بني مرينٍ، فوصَلَ إليْها في أواخرِ شعبانَ، حيثُ نَعِمَ بإحْسانِ السُّلْطانِ أبـــي عِنانٍ وإكْرامِهِ، إذ استقبلهُ أحسن استِقْبالٍ وأغرقَهُ بالعَطايا، مِمّا أطلقَ لِسانَهُ بالثَّناءِ عليْهِ، وتمجيـــد

فضائلِه وتعْدادِ مزاياهُ؛ ثم أذنَ لهُ بالسفَرِ إلى مسْقطِ رأسِهِ، فزارَ (**طنْجةَ**) وقبْرَ والدتِهِ فيها، ثم توجَّهَ منها إلى (**سَبْتَةَ**) وعبَرَ البحرَ منها إلى **الأندلس**، ولم تطُلْ زيارتُهُ لها، فقدْ كانَ ما تبقَّى للمُسلمينَ من البلادِ فيها جُزْءاً يسيراً: وقد نزل ابنُ بطوطةَ في جبلِ الفتْحِ (**جبلِ طارِقٍ**) وانتقل إلى (**رُنْدةَ**) وكانتْ يومَذاك من أمنَعِ معاقِلِ المُسْلمينَ، ورحلَ منها إلى (**مالَقَةَ**) وشاهد مسجدَها فوجدهُ "كبيرَ الساحةِ، شهيرَ البركةِ، وصحنُهُ لانظيرَ لَهُ في الحُسْنِ" ثم انتَهى إلى (**غِرْناطةَ**) وكانتْ يومَذاكَ عاصمةَ بني الأحمرِ، آخرِ الدُّويْلاتِ الإسْلاميَّةِ في الأنْدلُسِ، ولم يتمكَّنِ

الرحَّالةُ الكبيرُ من لِقاء سُلْطانِها أبـــي الحجــاج يوسُف، لِمرضٍ ألمَّ بهِ، ولَقِي جُملةً مـــن فُقَـــهاءِ غِرْناطة وعُلمائِـــها، وحدَّثَـــهُمْ بأخبــارِ رحْلَتِـــهِ الطويلةِ، فأنِسوا بها، قبل أنْ يُغادرَ عاصِمةَ بنـــي الأحمرِ **عائداً إلى المغربِ**، لِيتنقَّلَ فـــي مدُنِـــهِ: مرّاكُشَ ومِكناسةَ وغيرهما، في رِكابِ السُّــلْطانِ المريني العائدِ إلى عاصمتِه في فاسٍ.

ولكنَّ إقامةِ الرحَّالةِ في فاسٍ لم تطلْ هـــذهِ المرةَ أيْضاً، فقد عاودَهُ الحنينُ إلى الرحيلُ، فعزمَ على السفرِ إلى بِلادِ السُّودانِ، وودَّعَ السُّـــلْطانِ المرينيِّ ليقومَ برحلَتِهِ الأخيرةِ، في نهايةِ مطافِــهِ الطويلِ.

نهاية المطاف

ابنُ بطُّوطة في السُّودان

كانَتْ نهايةُ مطافِ جـوَّابِ الآفـاقِ ابـنِ بطُّوطةَ في رحلَتِهِ إلى **السُّودان الغرْبيِّ** وتنقُّلِـهِ خِلالَ أقلَّ من سنتيْنِ في **المُدُنِ التي وصلَ إليـها الإسْلامُ**، عن طريقِ القوافِلِ التجاريَّةِ التي كـانتْ تقطعُ إليها الصحـراء الكُـبرى بينَـها وبيـنَ المغْرِبِ، وفي القرنِ الخامِسِ الـهجريِّ، وفـي عهْدِ يوسُفَ بن تاشـفين، أحَـدِ أُمـراء دولـةِ المُرابطين ازدادتِ الصلةُ بينَ المغـربِ وتِلْـكَ

البِلادِ، وأصْبحَ سُكَانُها يدخلــونَ فــي ديــن الله أفْواجاً، ونشأتْ مُدُن جديدة لم تلبَــثْ أنْ غــدَتْ مراكَزِ لِتعليمِ الإسْلامِ يتوافدُ عليها الطلبةُ وعُلماء الدين، **مثلَ مدينةِ (تُمبكتُو) التــي زارهــا ابــنُ بطُّوطة ووصَفها وركِبَ منها في نــهرِ النيجــرِ** الذي يبعُدُ أربعةَ أميالٍ عنها، وقدِ التبــسَ علــى رحَّالتِنا الأمرُ، **فظنَّهُ نهر النِّيلِ**، لاقتِرابِ بحــرِ الغزالِ، وهو أحدُ فروعِ النيلِ، من نهْرِ النيْجــرِ، وقد ظلَّ الناسُ على هذا الوَهْمِ إلى أواخِرِ القــرْنِ الثاني عشرَ الهجريِّ، حينَ تمَّ اكتِشــافُ منــابِعِ النيلِ الحقيقيةِ.

غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مدينة **فاسٍ إلى سجلْماسَةَ** "**التي تُشبه مدينة البصْرة في كثرةِ تمرها**" وتهيَّأ فيها لِقطعِ الصَّحْراءِ، ثم سافرَ منها في أوَّلِ يــومٍ من عام 753 في رِفْقةِ بعضِ القوافِلِ التجاريــةِ، فوصَلَ بعد خمسةٍ وعشرينَ يوماً إلــى **(تَغــازا)** وهي قريةٌ "بيُوتُها ومسجدُها من حجارةِ المِلْـحِ، وسُقوفُها **من جُلودِ الجمالِ**" ثُمَّ تابعَ الرِّحْلةَ إلــى مدينةِ **(أيوالاتنْ) أولى مُدُنِ السُّودانِ**، فدخَلها بعدَ شهرينِ كاملَيْنِ من خُروجِهِ من سَجَلْماسةَ، ونزلَ في ضيافةِ أهلِها مُدَّة خمسينَ يوماً، وقد استرعى نظرَهُ أنَّ نساءها جميلاتٌ فائقاتُ الجمــالِ، وأنَّ الرجالَ فيها لا غيْرَةَ لديهم على نِسائِهِم، وهُنَّ لا

يحْتشِمْنَ من الرِّجالِ ولا يحْتَجِبْنَ، مـــع أنَّـهُنَ مُسْلِماتٌ مُواظِباتٌ على صَلواتِهِنَّ، ومِمَّا أثـــار استغرابَ ابنِ بطُّوطةَ أنَّ الرجلَ هُناكَ ينتسِـــبُ إلى خالِهِ لا إلى أبيهِ، وأن الإرْث يكونُ لأبنـــاء الأُختْ دون البنين، وذلك شـــيء مـــا رآهُ فـــي طوافِهِ في الدُّنْيا إلا في بَعْضِ بلادَ كُفَّارِ الـــهِنْدَ! فأمَّا هؤُلاء فـــهُمْ مُسْـــلِمون مُحـــافِظون علـــى الصَّلَواتِ وتعلمِّ الفِقْهِ وحفظِ القُرآنِ الكريمِ!.

ثُمَّ اتَّجَهَ ابنُ بطُّوطةَ إلى مدينةِ **(مالي) أكـــبرِ مُدُنِ السُّودانِ** وأعْظمِها شـــأناً، وبينَـــها وبيْـــنَ (أيوالاتن) مسيرةُ أربعةٍ وعشرينَ يومـــاً، وهـــي **عاصِمة ملِكِ السُّودان**، فوصلَ إلْيها في الرابِـــعِ

عشرَ من جمادى الأولى، وأقام في بيتٍ اكـــتراهُ فيها، وشهِدَ عيدي الفِطْرَ والأضْحى، ولم يُغادِرْها إلا في الثاني والعشرين من مُحرَّمِ عام 754 هـــ وكانَ في المدينةِ **جاليةٌ كبيرةٌ من أهْلِ المغــــربِ ومِصْرَ، تُقيمُ في حيٍّ خاصٍّ بها**، وقد لقِيَ رحَّالتُنا الكبيرُ منها كُلَّ احتفالٍ وتكريمٍ، أما سلْطانُ مـــالي فلمْ يلْقَ ابنُ بطُّوطةَ من إكْرامِهِ الشيء اللائــقِ إلا بعْد أنْ تصدَّى له في بعضِ مجالسِـــهِ، بمُناســبةِ شهرِ رمضانَ، وقال له: "إنِّي سافرْتُ فـــي بـــلادِ الدُّنْيا، ولقيتُ مُلوكِها، ولي ببِلادكَ أربعةُ أشْـــهُرٍ، ولم تُضِفْني ولا أعْطيْتني شيئاً، فماذا أقولُ عنـــكَ عندَ السَّلاطين؟".

ووصَفَ ابنِ بطُّوطةَ لِمملكةِ مالي وعــــاداتِ أهلِها في معاشِهِم وأعيادِهم وحياتِهِم الاجتماعيـــةِ طريفٌ حقّاً، ومِنْ خلالِهِ نرى **سُكَّانَ مالي علـــى حظٍّ وافِرٍ من الذكاءِ وحذقِ الصناعاتِ والشُّـــهْرةِ بالأمانةِ، والحِرْصِ على نشْرِ الإسْـــلام، ويُعـــدِّدُ رحالتُنا مزاياهُم ومساوئَهُمْ، مِمَّـــا يـــدُلُّ علـــى دراســـتِهِ لأحْوالِـــهِمْ بعيـــنِ الفـــاحِصِ الخبـــيرِ المُنْصِفِ، الحريصِ على ذِكْرِ ما لهُمْ وما عليْهِمْ.**

ثم غادرَ ابن بطُّوطةَ مدينة مـــالي قـــاصِداً (تُمْبُكْتو) فلمّا وصلَ معَ رِفاقِهِ إلى شاطئِ نـــهرِ النيْجِرِ شاهدَ عدداً من أفْراسِ البحرِ، وقد ظنَّـــها في بادئِ الأمْرِ فيلةً، فوصَفَها بقولِهِ: وهي أغلظ

من الخيْلِ، ولها أعْــراف وأذْنــاب، ورُؤوسُــها كرُؤوس الخيْلِ، وأرجُلُها كأرْجُلِ الفيلةِ، ووصَـفَ طريقةَ اصطيادِ النَّاس لَــها، ليَذْبحوهــا ويــأكُلوا لحْمها، وقد كانتْ عِظامُها مُنتشِرة علـــى طــولِ الشاطيءِ هُناكَ.

وفي مدينةِ (**تُمْبُكْتو**) رأى أهلَـــها يضعــونَ اللِّثامَ على أفْواهِهِم، ومِنْها **ركِبَ نهرَ النيْجرِ إلـــى مدينةِ (كَوْكَوْ)** وهي من أحسنِ مُـــدُنِ السُّـودانِ وأخْصبها، فأقامَ فيها شهْراً، ثُمَّ سافرَ منـــها إلـــى (**تَكدّا**) في البرِّ بِرفقةِ إحْدى القوافِلِ، وهي مركــزٌ تجاريٌّ يتعاطى أهلُـــها التجــارةَ مــع مِصْــرَ، ويتفاخَرونَ بِكُثْرةِ عبيدهمْ وجواريهمْ، وفيما كــانَ

ابنُ بطُّوطةَ في هذهِ المدينـــةِ **تلقَّـــى أمْـــراً مـــن السُّلْطانِ المَرينيِّ أبي عِنانٍ بالعودةِ إلى فـــاسٍ، فعادَ إلى المغْرِبِ**، ووصلَ إلى العاصمةِ المرينيَّـــةِ بُعيْدَ عيدِ الأضْحى من عامِ 754 هـــ، وراح يُمْلي على كاتِبِ السُّلْطانِ أحْداثَ رِحلاتِهِ، في مراحِلِـــها الطويلةِ التي استمرَتْ ثمانيةً وعشـــرين عامـــاً، وقطع خِلالَها نحْواً من مائةٍ وعشرين ألفـــاً مـــن الكيلو مترات، وقدْ فرغ الكاتبُ من تسجيلِها فـــي صَفَرِ عام 757 هـــ.

وبقيَ ابنُ بطُّوطـــة بعدَهـــا ينعـــمُ بِرعايـــةِ السُّلْطانِ لهُ وتكريمهِ إيّاه، خِلال العقدِ الأخير مـــن شيخوختِهِ، إلى أن لَقِيَ ربَّهُ عام 770 هـــ، وقـــد

ضمِنَتْ لهُ رِحلتُهُ العظيمةُ الشهْرةَ والمجدَ والخُلود في زُمرةِ المُبرِّزين الخالدين من الأعْــــلامِ فـــي الشرْقِ والغربِ.

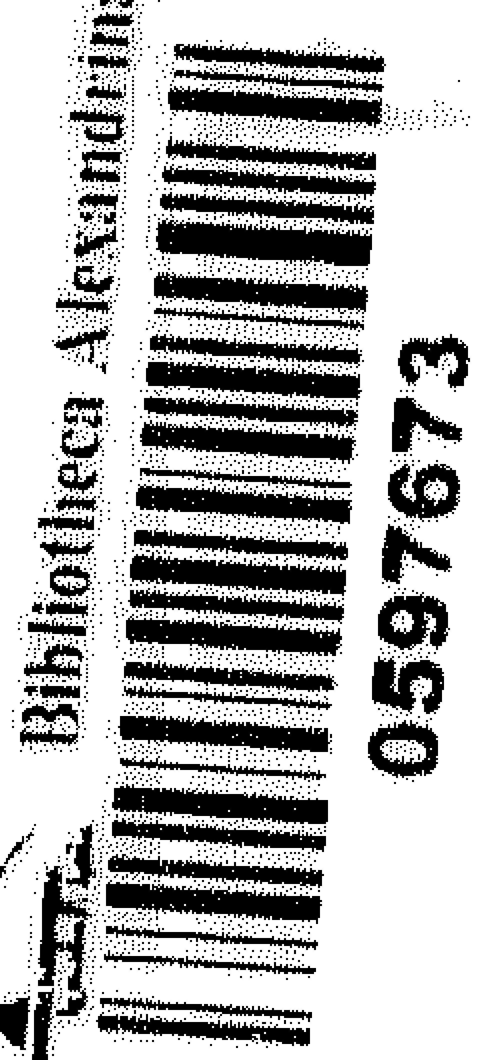
المحتوى

أعلام مبرّزون

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة

لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ – الاسكندر الأكبر	٦ – كريستوف كولومبوس
٢ – هنيبعل	٧ – وليم شكسبير
٣ – أبو العلاء المعري	٨ – نابليون بونابرت
٤ – ابن بطوطة	٩ – ليون تولستوي
٥ – ابن خلدون	١٠ – المهاتما



سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمصورات

بيروت - لبنان - ص.ب ٦٩١٨ / ١١

حلب - سوريا - ص.ب ٤١٥